بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الٓمٓ ﴿٢﴾

التفسير:

﴿الٓمٓ﴾: تسمى هذه الحروف مقطَّعات لتقطُّعها في النطق، ويتراوح عددها بين واحد وخمسة حروف. ومن ناحية النوع هي أربعة عشر حرفًا: ا، ل، م، ص، ر، ك، ه، ي، ع، ط، س، ح، ق، ن، والأخيران منها (ق، ن) يردان في بداية سورتين بشكل منفرد، والبقية منها ترد مثنى مثنى أو أكثر.

وقد اختلف المفسرون في هذه الحروف.. فقال بعضهم: إنها أسرار لله، وليس لنا أن نبحث عن حقيقتها. وقال البعض: إنها للتحدي بأن القرآن رغم تألُّفه من هذه الحروف كلام معجز. وإذا كان كلام الإنسان يؤلَّف من هذه الحروف فلِم لم يستطع العرب أن يؤلفوا منها مثل القرآن؟ وقال بعضهم: إنها أسماء السور. كما قيل إنها القَسم الذي أقسم به الله على موضوع السورة. لكن هذه المعاني لا تصلح لأن تكون دافعا لوضع المقطعات في بداية السور.

وفسرها بعضهم بأنها ملخص لكلام ذي مغزى ومعنى، يقولون مثلاً: إن الألف يدل على الله، واللام على جبريل، والميم على محمد ﷺ، أي هذا الكلام أنزله الله على محمد بواسطة جبريل، هذا المعنى يصدق على ﴿الٓمٓ﴾ولكنه لا يصدق على جميع المقطعات.

وقال البعض إنها تدل على صفات الله التي تبيّنها السورة بعدها، وهي الحروف الأولى أو الأهمّ من هذه الصفات الإلهية. وهذا المعنى الأخير أصح وأجدر بعظمة القرآن وأكثر اتفاقا مع ما يشهد به القرآن نفسه بهذا الشأن.

وقال البعض: إنها من ناحية قيمتها العددية تشير إلى آجال الحوادث التي وردت الأنباء بحدوثها في السورة، أو أن السورة تخص بالذكر أحوال تلك الأيام. هذا المعنى أقرب إلى الصحة أيضًا، وعلى الأقل فإن سكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه يصدقه كما سأذكر.

وقد زعم بعض المستشرقين أنها تدل على أسماء الذين ألفوا هذه السورة بأمر محمد ﷺ (ترجمة سيل نقلاً عن غويليس). فالألف عندهم يدل على أبي بكر، والعين تدل على علي أو عمر، والسين يدل على سعد، والطاء على طلحة، والهاء تشير إلى أبي هريرة رضي الله عنهم.

وهذا مما يشهد على جهل المستشرقين، ولكن بالرغم من هذا الجهل فإن كل واحد منهم يعد نفسه نابغة في مسائل الإسلام. والأغرب من ذلك أنهم أرادوا بالهاء أبا هريرة مع أنه أسلم قبل وفاة رسول الله ﷺ بثلاث سنوات فقط، بينما سورتا مريم وطه المبتدئتان بهذه الحروف مكيتان، وقد تم نزولهما قبل إسلام أبي هريرة بخمس عشرة سنة.

ومما يجب أن نأخذه في الاعتبار أن هذه السورة لو كانت من تأليف الصحابة رضي الله عنهم لكان يعني ذلك أن رسول الله ﷺ قد أشهد بنفسه هؤلاء الأشخاص على كذبه (نعوذ بالله من ذلك). فما دام قد استطاع أن يكتب سائر القرآن من عنده فلماذا كلف الصحابة تأليف هذه السورة خاصة، وكيف أشهدهم على هذا الافتراء.. وإذا افترضنا أنه فعل ذلك فلِمَ أقام الحجة على نفسه بوضع أسماء هؤلاء الكتاب في أول السور؟! وهذا مما لا يفعله حتى من فقد عقله!

ثم إن حديث رسول الله ﷺ أيضًا يشهد على كون هذه الحروف وحيًا. روى البخاري في كتاب التاريخ ونقله الترمذي والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف (الترمذي أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في من قرأ حرفا من القرآن).

علما أن المراد من الحرف هنا الكلمة، لأن الحرف قبل تدوين النحو كان يستعمل للكلمة أيضًا، ولكن بعد التدوين اختص استعماله بحروف الهجاء أو بالألفاظ التي ليس لها معنى مستقل. وإذن كيف يمكن الظن بأن هذه الحروف للدلالة على أسماء الذين زعم أنهم قد ألفوا هذه السور.

ثم الأغرب من ذلك أنهم يزعمون أن هذه الحروف كعلامات للأسماء، لكن أصحاب هذا الزعم ترجموا ﴿الٓمٓ﴾: (أَمَرَ لي محمد) *، الذي لا يدل على اسم ما. فكيف تكون هذه الحروف رمزًا لما يزعمون؟

وحديث جابر بن عبد الله الذي سيأتي أيضًا يشهد بأن رسول الله ﷺ بين أن ﴿الٓمٓ﴾ من الوحي.

* قولهم (أمر لي محمد) يدل أولاً على جهلهم المطبق باللغة العربية، وثانيًا على دجلهم وتلبيسهم في الدين.. لان هذه الجملة غير صحيحة لغوياً، وصوابها (أمرني محمد). ولكنهم اختلقوها كذبًا وخطًا ليتطابق (أمر) مع (أ)، و(لي) مع (ل)، و(محمد) مع (م). الناشر.

سبق أن ذكرت أن من معاني هذه الحروف دلالتها على آجال الحوادث التي تنبئ بها السورة. وصاحب هذا الرأي عالم يهودي.. كان قد أبدى وكرر رأيه هذا عند رسول الله ﷺ فلم ينكره، وكأنه صدقه إلى حد ما. ولذلك فإن هذا المعنى أيضًا جدير بالانتباه ويفتح آفاقا جديدة للمتدبرين.

والحديث الذي يذكر هذا المعنى، رواه البخاري وابن إسحاق في تاريخهما، كما رواه ابن جرير عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله.. وهو: "مرَّ أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ فأتى أخاه حييَّ بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون والله، لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؟ فقال: أنت سمعت؟ فقال: نعم. فمشى حُيَيّ في أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، ألم يُذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؟ قال: بلى، قالوا: أجاءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: نعم، قالوا: لقد بعث الله من قبلك الأنبياء، ما نعلمه بَيَّن لنبيٍّ منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك! فقال حُيي بن أخطب وأقبل على مَن كان معه: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة. أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجَلُ أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره. قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: المص. قال: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: الر. قال: هذا أثقل وأطول. الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان. فهذه إحدى وثلاثون سنة ومائتان. فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم. المر. قال: فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان. فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان. ثم قال: لقد لَبِسَ علينا أمرُك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أُعطيتَ أم كثيرا. ثم قاموا، فقال أبو ياسر لأخيه حييٍّ ومن معه من الأحبار: ما يدريكم لعله قد جُمع هذا لمحمد كلُّه: إحدى وسبعون وإحدى وستون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبع مائة وأربع وثلاثون سنة. فقالوا: لقد تشابه علينا أمره." (تفسير فتح البيان)

يتبين من هذا الحديث أن اليهود أرادوا بهذه الحروف الآجال أيضًا، وصرحوا بذلك لرسول الله ﷺ، فلم ينكره. ولكن استدلالهم بهذه الحروف على أجل الأمة المحمدية صريح البطلان، لأن أجل هذه الأمة

ممتد إلى يوم القيامة. ومع ذلك فإن سكوت رسول الله ﷺ عند استدلالهم لا يخلو من حكمة. فبالنظر إلى ذلك وإلى مواضيع السورة يمكن أن نقول بأن هذه الحروف من حيث قيمتها العددية تشير إلى ذلك الزمن الذي أنبئ عن أحداثه في تلك السورة خاصة.. وذلك بأن تقع تلك الحوادث بعد البعثة النبوية إما خلال نهاية هذه المدة أو أنها تبدأ من عندها.

وإذا أقمنا وزنا لهذه الحقيقة فمن الواضح جدًا أن محتويات البقرة خلاصة لما جرى بعد البعثة خلال إحدى وسبعين سنة.. توفي حضرة معاوية في ستين للهجرة، وإذا زدنا على ذلك ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة تصير هذه المدة ثلاثا وسبعين سنة. وأعلن معاوية بيعة يزيد قبل وفاته بسنة أو سنتين. فبهذا تحدد فترة بداية ازدهار الإسلام بإحدى وسبعين سنة، لأن تفاقم الفتنة كان في هذه السنة.

وسورة مريم تبدأ بـــ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ التي مجموعها مائة وخمسة وتسعون. والسورة تتضمن ازدهار النصرانية الثاني بعد رقي الإسلام. والتاريخ يشهد أن المسيحية في هذه السنة، أي ١٩٥ بعد البعثة النبوية، بدأت تسترد قوتها. وهذه في نفس السنة التي دبر فيها، لأول مرة في تاريخ الإسلام، عزل الملك العباسي المعتصم بالله أثناء محاربته الروم، وجعل مكانه عباس بن المأمون ملكاً، وذلك كي يضعف الإسلام ضد النصرانية، وفي هذه الأيام نفسها هاجم النصارى واستردوا بعض المناطق من الأندلس، وفي الزمن ذاته بلغت الشقاوة بالمسلمين أن تآمر خلفاء الأندلس مع ملك الروم على الخلافة العباسية، والعباسيون بدورهم عززوا علاقات الصداقة مع ملك الإفرنج على حساب الدولة الإسلامية الأندلسية، وهكذا مهدوا الطريق لازدهار النصرانية بإدخال النصارى في سياسة المسلمين. وأرى أننا لو فكرنا بنفس الأسلوب في سائر السور، تبينت لنا معانيها من الناحية الزمنية أيضًا.

والآن أسرد بحث المقطعات الذي يتأسس على التفسير الذي فسر به سيدنا علي وابن عباس رضي الله عنهم، وهو أن المقطعات تتضمن عدة أسرار، منها ما يتعلق بأشخاص هُم على صلة بالقرآن بحيث لا بد من ذكرهم فيه، ولكن المقطعات إلى جانب ذلك تعمل عمل القفل، فلا يمكن لرجل أن يدرك معاني القرآن إلا بفتحها، وبقدر ما تنفتح له هذه الأقفال يتمكن من الإطلاع على معانيه.

وبحثي بهذا الصدد يدل على أن معاني القرآن تتجدد بتجدد هذه الحروف. فإذا ابتدأتْ سورة بحروف منها فاعلم أن السور التي تليها ولا تبدأ بمقطّع جديد تابعة للسورة السابقة في الموضوع، وإن المتماثلة في المقطّعات متفقة في الموضوع ومنخرطة في سلك واحد. وعندي، طبقًا للمبدأ المذكور، يستمر الموضوع الواحد من البقرة إلى التوبة، فإن هذه السورة كلها مرتبطة بـــ ﴿الٓمٓ﴾ التي تبتدئ بها البقرة. ثم آل

عمران تبدأ بنفس الحروف، ثم النساء والمائدة والأنعام خالية من المقطعات، فكأنها تابعة لما قبلها. بعد ذلك تبدأ الأعراف بـــ ﴿المص﴾، وفيها ﴿الٓمٓ﴾ بحالها، لكن زيد في آخرها ﴿ص﴾. بعد ذلك الأنفال والبراءة خاليتان من المقطعات، فيستمر الموضوع المتعلق بـــ ﴿الٓمٓ﴾ إلى براءة. أما الصاد الذي زيد في آخر الأعراف فيشير إلى موضوع التصديق، الأعراف والأنفال والتوبة تبحث في ازدهار الإسلام ورقيه، لكن الأعراف تشير إلى موضوع التصديق بصورة مبدئية، والأنفال والتوبة تذكرانه مفصلاً ولذلك قد زيد هنا الصاد.

ثم سورة يونس تبدأ بـــ ﴿الٓرٰ﴾ بدلاً من ﴿الٓمٓ﴾، وبقيت (الـــ) بحالها، لكن الراء حلت محل الميم. فهنا تغير الموضوع.. لأن البحث من سورة البقرة إلى التوبة كان من وجهة نظر علمية، فمعنى ﴿الٓمٓ﴾ أنا الله أعلم. لكن البحث من سورة يونس إلى الكهف يحمل طابع الحوادث التاريخية ويقتصر على الاستنتاج من تلك الحوادث، لأجل ذلك قال الله عز وجل ﴿الٓرٰ﴾، أي أنا الله أرى وأعرض عليكم هذا الكلام معتمدا على رؤيتي لتاريخ جميع أمم الأرض. فهذه السورة كلها تبحث في صفة الرؤية، والسور التي قبلها تختص بصفة العلم.

أرى من المناسب أن أذكر هنا بإيجاز ما يزعمه بعض المفسرين من أن المقطعات مهملة وأنها وضعت قبل السور بدون جدوى. الحق أن المقطعات نفسها تبطل زعمهم، لأننا إذا تعمّقنا في القرآن كله، وجدنا المقطعات مرتبة ترتيبا وثيقا. البقرة تبدأ بـــ ﴿الٓمٓ﴾، ثم آل عمران تبدأ ب ﴿الٓمٓ﴾، ثم النساء والمائدة والأنعام بلا مقطعات. ثم تبدأ الأعراف بـــ ﴿المص﴾، ثم الأنفال والبراءة خاليتان. ثم سور يونس وهود ويوسف تبدأ بـــ ﴿الٓرٰ﴾. ثم زيد الميم إليها في الرعد، لكن الزيادة تختلف عما مضى، إذ الصاد في الأعراف بعد الميم، وهنا وضع الميم قبل الراء، فلو كانت الزيادة عن غير قصد لكن وضع الميم بعد الراء، لكن توسط الميم بين اللام والراء يدل على أن هذه الحروف تؤدي معنى خاصا.

كذلك عندما نجد أن السور المبتدئة ب ﴿الٓمٓ﴾ متقدمة، وتليها السور المبتدئة بـــ ﴿الٓرٰ﴾.. يتضح لنا تماما أن الميم متقدم على الراء من ناحية المعنى. وأيضًا في سورة الرعد اجتمع الميم والراء، وتقديم الميم

على الراء أكد بأن هذه الحروف وضعت لمعان خاصة، وكذلك نجد أن المتقدمة منها معنًى متقدمة في الترتيب أيضًا. بعد الرعد استهلت إبراهيم والحجر بالراء، لكن النحل والكهف ما ابتدأتا بها، فكأنهما تابعتان في الموضوع لما قبلهما. ثم سورة مريم تفتح بـــ ﴿كٓهيعٓص﴾، ثم سورة طه بـــ "طه"، ثم الأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان كلها خالية من المقطعات، وكأنها تابعة لـــ "طه". ثم الشعراء تبدأ بـــ ﴿ طسٓمٓ ﴾، فبقي الطاء من "طه" بحاله وزيد عليه السين والميم مكان الهاء. وبعد ذلك سورة النمل تبدأ بـــ ﴿ طسٓ ﴾ الذي حذف منه الميم أبقى ﴿ طسٓ ﴾. ثم عادت سورة القصص مبتدئة بـــ ﴿ طسٓمٓ ﴾، كأن حرف الميم أضيف إلى موضوع السورة، أو أعيد. بعد ذلك بدأت سورة العنكبوت بـــ ﴿الٓمٓ﴾ وتكرر بحث علم الله من ناحية أخرى، ولأجل ضرورة جديدة. (إنني وإن لم أكن هنا بصدد بحث الترتيب، لكن إذا سئلت عن تكرار ﴿الٓمٓ﴾، قلت: أن خطاب ﴿الٓمٓ﴾ في السور الأولى كان للكفار، أما في العنكبوت فالخطاب موجه للمؤمنين.

ثم بعد العنكبوت، الروم ولقمان والسجدة تبدأ بـــ ﴿الٓمٓ﴾. ثم الأحزاب وسبأ وفاطر بلا مقطعات. وكأنها تابعة لما قبلها. بعد ذلك سورة يس تبدأ بالياء والسين. ثم الصافات بلا مقطعات. ثم سورة﴿ صٓ ﴾ تبدأ بالصاد، والزمر خالية من المقطعات، وهي تابعة لما قبلها. ثم سورة غافر وحم والسجدة والشورى تبدأ بـــ ﴿ حمٓ ﴾، لكن زيد في الأخيرة حرف ﴿عسق﴾. وبعدها الزخرف تبدأ أيضًا بـــ ﴿ حمٓ ﴾ ثم الدخان والجاثية والأحقاف كلها تبدأ بنفس الحروف، ثم سورة محمد ﷺ والفتح والحجرات بلا مقطعات وتابعة لما قبلها، ثم سورة ﴿ قٓ ﴾ تبدأ بالقاف، ثم يستمر موضوع واحد إلى آخر القرآن.

فكرَّر الحروف المتجانسة ثم حذَف البعض. وتعويض البعض يدل على أن الذي وضعها لم يضعها إلا لغاية.

ولتحديد معاني المقطعات أرى من الأفضل أن نرجع للقرآن نفسه. فالسورة الأولى تستهل بـ ﴿الٓمٓ﴾، وجاءت بعد هذا المقطع آية:﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾. ثم في آل عمران جاء بعد هذا المقطع: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾.

ومما تجب ملاحظته هنا أن ﴿ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ و ﴿ بِٱلۡحَقِ ﴾ بمعنى واحد، فالكتاب الذي ذكر بعد ﴿ الٓمٓ ﴾ في البقرة هو نفس الكتاب الذي وصف بالحق في آل عمران.

ثم الأعراف تبتدئ بـ ﴿ الٓمٓصٓ ﴾، وتلا هذه الحروف آية: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

هنا أيضًا ذكر نفس الكتاب الموصوف بـ ﴿ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾، فقوله تعالى ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ ﴾ يدل على نفس الميزة.

ثم بعد عدة سور تبدأ العنكبوت بـ ﴿الٓمٓ﴾ أيضًا، ويليها قوله عز وجل: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾. هذه الآيات أيضًا تدل على كتاب حق، لأن الاختبار أو الابتلاء لا يكون إلا لجلاء الشك وإبطال الريب. فهنا نفس البحث الذي تشير إليه البقرة باختلاف بسيط وهو أن الخطاب في البقرة عام، وهنا خطاب خاص بالمؤمنين، حيث قيل لهم كيف يستحقون معاملة المقربين ولا يزال الشك يخالط قلبهم.

وفي سورة الروم نفس البحث وإن أصبح غاية في الدقة.. يقول الله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.. أي أن كلام الله نزل بصدد الروم وسيتحقق بلا شك. كأن الله عز وجل تحدى هنا بجزء من كلامه واستغنى عن الكل وأكد تحققه بحرفي (مِن) و (س) في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.

ثم تبدأ لقمان أيضًا بـــ ﴿الٓمٓ﴾ ويليها قول الله عز وجل: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

وصفة الحكيم أيضًا تدل على أمر يقيني، فكأنه تكرار لموضوع البقرة.

بعد ذلك سورة السجدة تبدأ بـــ ﴿الٓمٓ﴾ أيضًا، ويليها قول الله عز وجل: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. هنا أيضًا ذكر الكتاب الذي لا ريب فيه.

فهذه الآيات كلها توضح جليا أنه أينما ذكر ﴿الٓمٓ﴾ تبعها موضوع خاص يؤدي إلى علم يقيني لا يساوره ريب. فمع هذه الحقيقة الناصعة كيف يمكن أن نتوهم ونقول أن هذه الحروف مهملة لا تهدف إلى شيء؟ فالحق أن ﴿الٓمٓ﴾ ترمز إلى إزالة الشك وتمكين اليقين. والشيء الذي يبطل الشك هو العلم الكامل الذي يدل عليه معنى ﴿الٓمٓ﴾ أي "أنا الله أعلم".. أي من أراد استئصال الشك واحتراز اليقين فليتوجه إلى ما ألقيت إلى الرسول من الكلام.. وليدرس ما أنزلت إليه من الكتاب.

الآن أتناول البحث عن ﴿الٓر﴾. إذا أمعنا النظر في السورة المبتدئة بهذه الحروف وجدناها تبتدئ ببحث واحد.. فقد استهلت سورة يونس بقوله عز وجل: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٣ ﴾

ثم يقول الله عز وجل في سورة هود: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝٢ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٣ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٤ ﴾.

ثم ورد في سورة يوسف: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٤ ﴾.

ثم جاء في سورة الرعد: ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

هنا اجتمع موضوع الميم والراء.

ثم ورد في سورة إبراهيم: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾.

ثم في سورة الحجر: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

إذا أمعنا في هذه المواضع، تبين أن البحث يدور حول موضوعين اثنين، التاريخ القديم وخصوصًا عقاب المجرمين وخلق الكون، والاستفهام الإنكاري في سورة يونس يدل على أن الأنبياء بين بشير ونذير لن تنقطع بعثتهم قط. وبيّن في سورة هود أن كل قوم في تطور دائم، وأنه لا بد أن يتطور في مدى معين. ووضح بذكر الخلق أن تقدم العالم خاضع لقانون الارتقاء. بعد ذلك أشار في سورة يوسف إلى تاريخ العالم بصورة واضحة. ثم بإضافة (ميم) في سورة الرعد جمَع موضوعَي ﴿الٓمٓر﴾ و﴿الٓر﴾، حيث أشار بـــ(ميم) إلى أن القرآن كلام يقيني، ثم دعا إلى النظر والتفكير في خلق الكون. ثم في سورة إبراهيم كرّر التوجيه إلى التفكير في قوانين القدرة، مبيّنا أنكم لو فعلتم ذلك فستجدون فيه آثار يد الخالق الحكيم. وفي سورة الحجر دعانا إلى التفكير في القانون القديم. ومن البين أن قانون الكون وحوادثه المختلفة مرتبطة بالرؤية، والحق أنه لا يستطيع أحد التحري عن الحقيقة إلا إذا كانت ظواهر الكون وقوانينه منكشفة أمامه. فعلاقة هذه السور بالرؤية واضحة كما تشهد بها كلمتا ﴿الٓمٓر﴾ و﴿الٓر﴾

اللتان قيل فيهما أنني أنا الله أعلم وأرى. فلا التاريخ القديم غائب عني ولا خلق الكون وقوانينه خافية علي.. فهدايتي هي التي يمكن أن تغنيكم عن كل شيء آخر في إدراك الحقائق المتعلقة بالعلم والرؤية.

وجدير بالذكر أيضًا أن المقطعات، وإن كانت معانيها تتغير بتغير الأحرف، لكنها متفقة في أمر واحد وهو أن السور التي تفتتح بالمقطعات يستهل موضوعها بالوحي، ومعظم هذه السور تصرح بكلمة الكتاب و القرآن، وبعضها تشير إلى كتاب قديم مثل سورة مريم، أو إلى كلام خاص مثل سورة الروم.

هذان المعنيان المذكوران أي أن المقطعات (أولا) تدل على الصفات الإلهية وكل حرف يمثل الصفة التي تبحث فيها السورة، وأنها (ثانيا) تدل على قيمتها العددية (الآجال)، ومجموع عدد هذه الحروف يحدد الحوادث الواقعة إلى مدى المقدار من الزمن، كلاهما صحيح، وليس من اللازم أن يكون أحدهما صحيحا دون الثاني. ويوافقني في هذا الرأي بعض العلماء من صدر الإسلام أيضًا.. كما روي ابن أبي حاتم عن أبي جعفر الرازي عن أبي العالية يقول: "... ليس فيها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسماء الله، وليس فيها حرف إلا وهو في آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة قوم وآجالهم". أي أن في هذه الحروف إشارة إلى كل الصفات الإلهية، والحوادث من أزمنة مختلفة، والكلام الإلهي المعجز. ورأي أبي العالية في غاية الروعة والصواب والصدق. وقد نقله ابن جرير بلفظ آخر وصدقه.

يمكن أن يقال عن المقطعات: لماذا اختار القرآن الكريم هذا الأسلوب المبهم؟ ولماذا لم يبين هذه المعاني بكلمات واضحة كي يفهمها العرب وغيرهم على حقيقتها؟ فالجواب أن هذا الأسلوب ليس غريبا عند العرب، بل إن كبار الشعراء العرب كانوا يستعملونه.. كما قال أحدهم: "قلنا قفي لنا فقالت قاف". ويعني قوله "قاف" وقفت. وقال آخر:

بالخير خيراتٌ وإنْ شرٌّ فا ولا أريد الشـــر إلا أن تا

فالشاعر قد اكتفى هنا بـــ "ف" بدل "فشَرٌّ" و بـــ "تا" بدل "تشاء".

وفي حديث رسول الله ﷺ: من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل وكتب بين عينيه آيس من رحمة الله. (ابن ماجة، كتاب الديانات).. أي أنه إذا قال: "أقْ" مكان أقتل، فجزاؤه بما ذكر من اليأس والحرمان.

فالعرب متمسكون بهذا الأسلوب المرتبط بالقرينة في النظم والنثر، ومن الأمثال الرائعة لهذا الأسلوب ما اختاره القرآن من المقطعات. والأمم الغربية قد بالغت اليوم في استعمال هذا الأسلوب.

وهناك مئات بل آلاف من الحروف التي تتقدم مختلف الكلمات، والناس يفقهون معناها ولا يستغربونها.

ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢

شرح الكلمات:

ذلك: اسم إشارة للبعيد، أحيانا يستعمل للقريب بمعنى: هذا.. نقل عن الزجاج: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ أي هذا الكتاب (تاج العروس). ويمكن استعماله للقريب مع دلالته على البعيد.. إذ إن الإشارة إلى القريب بالبعيد إنما يراد منه البعد المعنوي دلالة على علوّ المرتبة (فتح البيان).

الكتاب: "ال" تفيد التعريف علاوة على المعاني الأخرى. فإذا كانت للتعريف فهي إما عهدية وإما جنسية، فالعهدية إما أن يكون معهودها ذِكْرِيًا -أي قد سبق ذكره- أو يكون ذهنيًا -أي يفهمه المتحاوران- أو حضورياً -أي يكون حاضرا موجودا أمامهما. والجنسية إما استغراقيّة، وهي ما تَخْلُفُه "كُلّ" حقيقةً أو مجازًا، نحو "خُلق الإنسان ضعيفا"، أي كلُّ إنسان، و"أنت الرجلُ"، أي الكامل في الرجوليّة؛ وإما لتعريف الحقيقة، وهي لا تخلفها "كُلّ" حقيقةً ولا مجازًا -نحو الإنسان أفضل من الحيوان. (الأقرب)

والكتاب: مصدر، وهو ما يُكتَب فيه، وسمي به لجمعه مسائل مختلفة مع أبواب وفصول، ومنه سميت التوراة كتابًا. وكل ما يُكتَب فهو كتاب. والكتاب: الحُكمُ؛ الفرضُ؛ والقدر. ويطلق الكتاب على المنزَّل من الله تعالى، وعلى ما يكتبه الشخص ويرسله من المكتوب. (الأقرب)

فهذه الكلمة يختلف معناها حسب اختلاف المواضع، فيطلق لفظ الكتاب على وحي التشريع لاشتماله على فروض وأحكام، وقد يطلق على كل وحي حق صادق لكونه إلهاما، وإن لم يدوَّن بصورة كتاب.

ريب: الريب: الظنة والتهمة؛ الشك؛ والحاجة؛ وريب المنون (الأقرب).

وقد وردت كلمة ريب في عدة مواضع من القرآن الكريم. ففي سورة البقرة:﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾. فالريب هنا بمعنى الشك. وفي سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾.. أي في شك من البعث.

ثم في سورة الطور: ﴿ أَم يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ أي نتربص به دوائر الزمن والهلاك.

ولم ترد هذه الكلمة في القرآن إلا للدلالة على معنى مذموم.. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ (ق: ٢٦). وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ (غافر: ٣٥). فالريب لا تدل على الشك الذي يزيد الإنسان بحثا وتدقيقا، بل هو الشك الذي ينشأ عن سوء الظن والتعصب ويبعد الإنسان عن الحق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(المدثر:٣٢). وفي الحديث الشريف: "دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك" (الترمذي، أبواب صفة القيامة). ويظهر من الحديث أيضًا أن الريب شك ناشئ عن الوهم أو الوسوسة، وليس مما يساعد الإنسان على البحث والتدقيق.

هُدًى: الهدى هو الرشاد، البيان، الدلالة (الأقرب). والهداية الدلالة بلطف. والهدى بالقرآن تدل على معان أربعة:

١. الهداية التي عمت بجنسها كل مكلف.. من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي وهب منها كل شيء ما يناسب احتماله.. قال تعالى: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه:٥١). وذلك ما ترى في الحيوانات التي لم تكتمل فيها قوة الإدراك، وليس لها منه إلا ما لا بدَّ منه من العلم الجزئي السطحي بالأمور البسيطة اللازمة لحياتها.

وأرى أن ﴿هدى﴾ تعني إيجاد القوى المختلفة في الشيء وتسخيرها له، لأن مجرد وجود القوى لا يجدي، بل إن دفعها للعمل لا بد منه لبث الحياة فيها. فالوليد بولادته يكون مكتمل القوى النفسية، لكنه لا يبدأ بحياته العملية إلا عندما تنتعش قواه بفعل الهواء والماء. ومثله في ذلك كالساعة التي تحتوي على جميع الآلات المهمة لتشغيلها، ولكنها لا تبدأ الحركة إلا بعد التدوير.

والخلاصة أنه لا بد من الدافع الابتدائي لحركة الحياة، وهذا الدافع الابتدائي هو المراد من الهدى. وقد صرحت هذه الآية أن الله عز وجل قد أعطى كل شيء قواه الضرورية، ثم دفعها للعمل المفوض لها.

٢. الهداية التي جعلها الله تعالى للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال الكتب كالقرآن ونحو ذلك، وهو المقصود من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾.

٣. والهداية التوفيق، أي التمكن من القيام بالعمل الصالح، وسمو الفكر الذي يختص به من اهتدى. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾.

٤. الهداية في الآخرة، أي النهاية السعيدة ونيل الجنة قال تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾، أو قوله: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ فمعناها الدعوة إلى الحق. أما الآيات المشتملة على عدم اهتداء الظالمين كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)، فالمراد منها النوع الثالث والرابع من الهداية أي التوفيق بالعمل والتمتع بنور الإيمان ودخول الجنة. ومن البين أن الذي لا يتمكن من النوع الثاني من الهداية سيحرم حتمًا من النوعين التاليين.. لأنهما من ثمرات النوع الثاني.

المتقين: جمعُ مُتَّقٍ، والمتقي اسم فاعل مِن اتّقى، والاتقاء افتعال من وقى، ومعناه لغةً: أنقذَ، صانَ، حفِظ. واتقى: احتفظ (الأقرب). وهو يدل في الشرع على الامتناع عن الشر، ولا يطلق على مجرد الخوف. والوقاية: الترس أو كل ما يتخذه الإنسان من وسيلة للدفاع عن نفسه. وقال البعض: اتقاء لله معناه اتخاذ الله عز وجل جنة للنجاة. والتقوى التي وردت في القرآن.. سأل عنها أبو هريرة فقال: "إذا وجدتم شوكا في الطريق فماذا تفعلون عندئذ؟ فقال السائل. أمر بها متجنبا أو أتحيز عنها حذرا. فقال أبو هريرة: هذا هو التقوى"، أي أن يتجنب عن المعصية ويتهرب منها بكل وسيلة. وقد أنشد أبو المعتز في هذا المعنى أبياتًا رقيقة فقال:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها ذاك التُّقَى
واصنَعْ كماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذَر ما يرى
لا تحقرنّ صغيرةً ... إن الجبال من الحصى

التفسير: إن "ذلك" إشارة إلى البعيد، فلماذا استعملها الله تعالى للقريب فقال: ﴿ذلك الكتاب﴾؟

أجاب بعض العلماء أن "ذلك" يأتي للقريب أيضًا كما ذكرنا في معاني المفردات. وقال بعضهم إنه للبعيد، ولكن إذا انتهى ذكر شيء فهو بعيد بلا شك، كما لو ذكرنا شيئا في الكلام ثم أردنا إعادة ذكره، جاز أن نشير إليه بذلك. والعرب عندما ينتهون من حكاية أمر، يقولون: ذلك ما لا شك فيه. (الكشاف). وكذلك ورد في القرآن: ﴿ لا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ (البقرة: ٦٩). وذلك هنا إشارة إلى الفارض والبكر وهما قريبا الذكر. ويقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾(يوسف: ٣٨). وهناك آيات أخرى كهذه مثل: ﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ (السجدة: ٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (الأنعام: ٨٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ (الأنعام: ٩٣).

والخلاصة أن "ذلك" يستعمل في كلام العرب بمعنى هذا، وليس من الضروري أن يكون المشار إليه بعيدًا في الواقع، بل إذا كان بُعده ذهنيًّا، أي قد مر ذكره، فمن الجائز أن يشار إليه بـــ "ذلك".

إذًا يمكن أن نفسر قوله تعالى ﴿ذلك الكتاب) بعدة معان: (١) هذا هو الكتاب، (٢) هو هذا الكتاب، (٣) هذا.. هو الكتاب الكامل، (٤) هذا.. ذلك الكتاب الكامل.

تصلح هذه المعاني الأربعة إذا كان "ذلك" مبتدأ و "الكتاب" خبرا، لكن هناك صورة أخرى وهي أن يكون "الكتاب" عطف بيان و ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ خبرا، فيكون المعنى هذا الكتاب الكامل لا يتضمن ريب، أو ﴿ذلك الكتاب﴾ هداية الأنبياء.. لا يحتوي على شك.

لكن الأصح عندي والأوفق للفظ القرآن معنيان اثنان:

(الأول): هذا هو الكتاب الكامل، تقول العرب: زيد العادل، أي أن زيدا هو العادل، فقوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾ يعني أن هذا الكتاب وحده يستحق أن يتصف بصفة الكتاب. فيُعتبر "ال" هنا للاستغراق المجازي. والأخذ بهذا المعنى لا يضطرنا إلى تأويل بعيد خارج عن الكلام، ثم إن هذا المعنى أكثر انسجامًا مع السياق أيضًا، لأن الكتاب الذي يقدّم نفسه بأنه كتاب سماوي مع وجود كتب سماوية

أخرى.. لا بد أن يبدأ بادّعاء مثله، لأن الناس سوف يتساءلون حتمًا: ما الحاجة إلى كتاب جديد والكتب الأخرى موجودة؟ وفي هذا الأسلوب إجابة عن هذا السؤال الفطري، حيث قيل للسائلين بأن الكتب الأخرى موجودة بلا مراء، لكن مجرد وجود كتاب لا يجعله محققا لجميع الضروريات الإنسانية. إن الغرض من الكتاب تأمين الوسائل الروحية للإنسان، وهذا هو الكتاب الوحيد الذي يحقق هذه الغاية العظمى، فلذا تمس بنا الحاجة إليه رغم وجود الكتب الأخرى.

وهذا المعنى أنسب وأليق أيضًا بالنظر إلى معنى مقطعة ﴿ الٓمٓ ﴾ التي سبق ذكر معناها، فعبارة ﴿ الٓمٓ ﴾.. أي "أنا الله اعلم"، تدل على أنه مهما علم الناس من العلوم فإن علم الله هو الكامل من ناحية ضرورة ذلك الزمن. كما إن عبارة "أنا الله أعلم"، ادعاء يحتاج إلى الدليل، وأكبر دليل على ذلك أن تقدم للناس مادة علمية لم يسبق لها نظير. فأجود معنى ممكن لقوله ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ بالنظر إلى مفهوم ﴿ الٓمٓ ﴾، هو أن هذا الكتاب هو الكتاب الكامل.

وإذا التفتنا إلى شهادة التاريخ وجدنا هذه الدعوى متحققة تماما. لا شك أن القرآن مسبوق زمنا بالتوراة والإنجيل و "الفيدا" و "زند" وغيرها من الكتب.. لكن إذا قارنا بينها وبين ما جاء به القرآن من التعليم وجدناها عاطلة عن الشمول والجامعية التي نجدها في ثنايا القرآن المجيد. إذا كانت مزية الإنجيل أن يؤكد على الحب الإلهي، فإن القرآن يتضمن ذلك وأكثر، وإذا كانت التوراة تفتخر بشريعتها فهي أيضًا تتضاءل أمام شريعة القرآن الجامعة، مع أن القرآن أصغر منها حجما. وقد بلغ القرآن من الجامعية والكمال مبلغًا جعل معنى الشريعة عن المسلمين متميزا، فالمسلم عندما ينطق بكلمة الشريعة، يقصد بها معنى خاصا يشمل:

١. علاقة الوالدين والأولاد،
٢. الروابط الزوجية،
٣. الزواج وأهدافه،
٤. حقوق الزوجين وواجباتهما،
٥. اختيار الرجل زوجته وبالعكس،
٦. مبادئ تربية الأولاد،
٧. النظام العائلي،

٨. نظام الوراثة،

٩. نظام الوصية،

١٠. حقوق الجار القريب والبعيد،

١١. مبادئ التجارة،

١٢. مبادئ الزراعة،

١٣. واجبات الراعي والرعية وحقوقهما،

١٤. أنواع الحكم،

١٥. حقوق الأجير والمستأجر وواجباهما،

١٦. العلاقات الدولية،

١٧. أسس الاقتصاد،

١٨. حقوق الإنسان بل الحيوان أيضًا،

١٩. صلات الرسل وأتباعهم،

٢٠. وأخيرا وليس آخرا، بل قبل الكل، علاقة الإنسان بخالقه.

كل ذلك بصورة مفصلة وبأحكام شاملة كاملة محكمة بحكمتها، ويتضمن القرآن أيضًا أمورا أخرى بنفس الصفة، وليس ثمة كتاب يتضمن عشر معشار هذه الأمور. ولنأخذ مثلاً كتاب الفيدا (كتاب الهندوس المقدس).. لنجد أن الأكثرية من الهندوس تجهله، والأقلية التي تعرفه لا تستعمله إلا للشعوذة والألغاز، وأهم مزية له عندهم أنه يتضمن الأدعية المختلفة، وأنه يبين الغرض من خلق الإنسان. ولكن فلسفة الدعاء وفلسفة خلق الإنسان التي فصلها القرآن يتضاءل أمامها تعليم الفيدا. فأدعية القرآن مشتملة على دقائق الفطرة، وليست كلمات رنانة جوفاء. إنها تجعل الإنسان يشعر بضعفه، ويطلع على سيئاته، ثم لا تهمله بل تشجعه على استمداد القوة من ربه، وتستره بستر القداسة والطهارة. ثم إن القرآن يبين أسرار الخلق بأسلوب لا يشرد منه فكر الإنسان باستعارات بعيدة، بل يخرجه من ظلمات الحياة إلى نور المشاهدة والتجربة، ويصقل عقله ويجلو تفكيره.

والتفصيل الذي ذكر به القرآن قضية البعث بعد الموت لم يبق أمامه للكتب الأخرى إلا الاعتراف بالهزيمة والفشل. التوراة ساكتة عنها كل السكوت، والإنجيل يذكرها بصورة ناقصة جدا، والفيدا لا يتناولها بتاتا، وكتاب "زرداشت" يذكرها باستعارات غامضة وبكلمات مادية بحتة، لكن القرآن بعكس ذلك كله، يتناول هذه القضية بصورة مفصلة، ويبين ما هو جزاء المحسن والمسيء، وكيف يتم ذلك، وما

هي كيفيته، وما هو الغرض منه، وما هو الهدف الحقيقي من الحياة الآخرة، وما هي الوسائل العلمية لتحقيق هذا الهدف، وما هي مبادئ الجزاء والعقاب.

ثم إن فلسفة الأخلاق التي يتأسس عليها الدين ويتوقف عليها الأمن والأمان في الأرض.. بحث لم تتناوله الكتب الأخرى قط، أو تناولت قشره وأهملت لبّه. فتعاليم بوذا ترتبط بالعواطف ولا شك، لكنها لا تبلغ شأن تعليم القرآن. إذ إن القرآن لا يكتفي بذكر العواطف فقط، بل يبحث أسباب نشأتها، ويؤكد ضرورتها، ويوضح الطرق المناسبة لإظهارها بأسلوب حسن، ويبين متى تكون صالحة وبأي صورة ومتى تسوء وبأي طريق، وكيف يمكن تحويلها من السيئ إلى الأحسن، وكيف يمكن للإنسان أن يتجنب العوامل التي تدفع العواطف إلى السيئات.

جاء في تعاليم بوذا: "اقلعوا عن الأهواء تتقوا الذنوب"، لكنه لم يذكر الدوافع المؤدية إليها، وسكت عن العوامل التي تساعد على إزالتها. لكن القرآن المجيد يرشدنا إلى منبعها، ويوجهنا إلى التدابير التي تسد ذلك المنبع.

ورغم هذه التفاصيل الجامعة.. فالقرآن الكريم أصغر حجمًا من جميع الكتب السماوية؛ مما يجعله سهل القراءة، هين الفهم والحفظ حتى يبلغ عدد حفاظه مئات الألوف.

فافتتاح القرآن بقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ ﴾ لدليلٌ على أن هذا الإعلان جاء طبقًا للضرورة وفي أنسب مقام حقًّا.

(الثاني): هناك معنى آخر لهذه الآية غير ما سبق، وأيضًا يساير السياق مسايرة تامة.. وهو أن سورة البقرة مسبوقة بسورة الفاتحة.. التي تعلمنا منها دعاء يقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾. وقد أجيب هذا الدعاء لهذه الآية حيث قال الله عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾، أي أن الهداية التي طلبتموها في الفاتحة هي في هذا الكتاب أي القرآن. وبهذا يبقى ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ بمعناه الحقيقي، أي إشارة إلى البعيد ولا يحتاج الأمر إلى تأويلات أخرى.

عندما علمني ربي هذا المعنى شكرته على ذلك وشعرت بالانشراح، ولكن بعد فترة من الزمن اطلعت على قول لمفسر واحد.. سبقني إلى هذا المعنى وهو ابن جعفر بن إبراهيم بن الزبير أستاذ ابن حيان، الذي نقل عنه هذا المعنى في تفسيره. ولا شك أن هذا المعنى في غاية الروعة والدقة، وتتضح به العلاقة بين

سورة الفاتحة وسورة البقرة، ويتبين أن ترتيب سورة البقرة بعد الفاتحة ليس مصادفة، بل إن سورة البقرة تقع موقع الجواب للفاتحة. وبذلك أيضًا لا نضطر إلى ترك المعنى المعروف بكلمة "ذَٰلِك".

والجزء الأخير من هذه الآية ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ هو أيضًا يصدق هذا المعنى، فكأن الآية تدل على أن الهداية التي سألتموها في دعاء الفاتحة هي في هذا الكتاب. وبما أنكم ما طلبتم هداية عادية.. بل سألتم ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، فهذا الكتاب جاء حسب طلبكم. فهو لا يتضمن مجرد هداية.. بل هو ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، أي يسمو بالتقيّ الكامل ليدخله في أعلى عليين من الطوائف المنعم عليها، كما أنه جمع ما أوتي النبيّون من تعاليم، وما تؤدي إليه هذه التعاليم من إنعامات.

قوله تعالى ﴿ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾، ينفي عن القرآن الكريم المجيد كل معاني الريب من تهمة أو شك أو حاجة أو آفة. وبذلك يكون التحدي من أربعة نواحٍ أيضًا. إن هذا الكتاب لا يُنقص أحدًا حقَّه، وليس فيه تهمة لا ضد الله تعالى، ولا ضد نبي، ولا ضد مَلَك من الملائكة، ولا ضد أحد من بني الإنسان، ولا حتى ضد الفطرة الإنسانية، وهذه الدعوة من العَظَمة بحيث لا نجد لها نظيرا في أي كتاب آخر، وهذه حقيقة ثابتة لم يسبق لها مثيل في الملل الأخرى.

قد أثار الله تعالى في أول القرآن تساؤلا عن الحاجة إلى هذا الكتاب الجديد مع وجود الكتب الأخرى. وكان من اليسير الرد على هذا التساؤل بذكر شيء من مزالق الكتب السابقة، وتعداد بعض عيوبها التي تجعلها غير صالحة كمصدر للهداية، ومن أجل هذه العيوب أنزل الله تعالى القرآن المجيد؛ ولَكان هذا الجواب صحيحا ومفحما، لأن القرآن، وإن كان داعيا إلى التعاليم التي جاء بها الأنبياء جميعا.. وإلى أن بعثة النبيين استمرت قبل مجيء رسول الله ﷺ.. وإلى أن بعض الأنبياء جاءوا بشريعة من السماء، إلا أنه لا يسلِّم ببقاء هذه التعاليم مصونة إلى ذلك الوقت. لكن ابتداء هذه البشارة العظيمة، أي قوله "ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ فِيهِ" ، بمثل هذا الأسلوب يشق على الطبائع النفسية، لأن الاطلاع على مزالق الكتب السابقة، وإن كان من واجبات القرآن المجيد، لكن الخوض فيها عند بدء الأمر لم يكن لائقًا بكتاب في عظمة القرآن، كذلك لم يكن مجديا لإظهار العظمة الرائعة التي تتحق بالأسلوب الوارد القائل: إننا لا نحط من قدر فرد أو كائن ما، بل نعترف بمنزلته اللائقة به. فافتتاح

القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ وتجنُّبه الاعتراضَ في نفس الوقت على الكتب السابقة، لشاهدٌ على عظمة القرآن. فهو يقدم البشارة للناس بقداسته وخيراته، وهو يحمي ذوي الطبائع الطاهرة من الاطلاع على مزالق الكتب السابقة. هذا يكشف عن عظمته الذاتية، إذ لا يبدأ بعيب الملل الأخرى ليفرض أهميته، بل يقدم كمالاته كدليل على صدقه، دون أن يمس بكرامة الديانات السابقة. وهذا موقف يدعو للإعجاب بشرفه وسموه، وقد اختاره القرآن مع صعوبته وخطورته لإثبات صدقه، وحقق به أعظم نجاح.

القرآن الكريم لا يدعم صدقه بإبطال الملل الأخرى، كلا، بل إنه يقرر: ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ (فاطر: ٢٥)، ﴿ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ ﴾ (الرعد: ٨). فهو يعترف بصدق الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى لإرشاد البشر، ويبرئ أصل الأديان التي تحمل طابع الوحي السماوي من تهمة الكذب والزور.. وذلك على عكس ما يقوله اليهود والنصارى والهندوس وغيرهم، إذ كل واحد منهم يصر على تكذيب غيره، ويقول بأن كل ملة أخرى لهي مجرد ظلمة وضلال، وأن الله حرم سائر العالم من الهداية. ولكن القرآن الكريم يقر بضرورة الهداية لكل زمان ولكل قوم، ويعلن بأن كل نبي كامل لعهده، محقق لضرورات الإنسان في دوره.. وهكذا يمتاز القرآن عن الكتب الأخرى بترفعه عن اتهام أحد.

إن الذات الإلهية هي العنصر الأساس في كيان الدين، وهي النقطة المركزية لكل الملل. وقد يندهش البعض إذا قيل له: إن الكتب السابقة تتناول المقام الإلهي بما لا يليق به.. ولكن ذلك حقيقة واقعة. فالكتب الدينية المقدسة والمتداولة بين أيدي الناس، مثل العهد القديم (التوراة)، والعهد الجديد (الإنجيل)، وأسفار الفيدا (كتاب الهندوس).. والزندافستا (كتاب الزرداشتين).. كلها تنسب النقائض إلى الذات الإلهية بصورة أو بأخرى.. وفي حين أن القرآن الكريم يزيل كل ريب، ويصف الله تعالى بكامل العزة والجلال والقداسة.

جاء في العهد القديم أن الله بعد أن خلق الكون شعر بالحاجة إلى الراحة فاستراح، وبمثل هذا القول نسبوا إلى الخالق سبحانه ما لا يليق به: "وفرغ الله في اليوم السادس من جميع عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع. وبارك الله اليوم السابع وقدسه، لان فيه استراح من جميع عمله الذي عمل". (سفر تكوين٢)

وقد عمدوا إلى حذف كلمة "استراح" من بعض الترجمات واستبدلوها بكلمة "فرغ" كما في النسخ الأردية.. تهربا من الاعتراض.. لكن ما تزال الكلمة هي نفسها في النسخ العربية والإنجليزية. ولقد فند القرآن الكريم هذه التهمة القبيحة فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (ق: ٣٩).

وجاء في التوراة أيضًا أن الله تعالى تأسف وحزن على خلق الإنسان في الأرض. وكأن خلق الإنسان كان خطأ ندم الخالق على فعله، تعالى الله عن ذلك علو كبيرا. والذي يخطئ ولا يعرف نتيجة عمله غير جدير بأن يكون إلها: "فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه " (تكوين ٦).

ولكن القرآن الكريم يبين قدسية الله حيث يقول: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ٣٤). ومن يعلم الغيب لا يخفى عليه شيء، ومن المستحيل أن يخطئ ويندم على خطئه. وإن الندم دليل على ضعف الفاعل وقلة علمه ونقص بصره، ولكن القرآن يعلن أن الكون وكل ما فيه من سماء وأرض وإنسان وملاك وحيوان ونبات وصغير وكبير.. يشهد بأن الله تعالى منزه عن كل عيب وضعف: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (الجمعة: ٢). ثم إن أكبر التهم وأشنعها في حق الله تعالى هي الشرك. وقد تفنن الإنسان في اصطناع شركاء مع الله تعالى. فمنهم من قال بإلهين: إله النور وإله الظلام.. ومنهم من اختلقوا ثلاثة آلهة، فقالوا: الآب والابن وروح القدس. وبعضهم افتروا عليه بالأزواج. ومنهم من وزع صفات الله على عدة شخصيات، واتخذوا كلا منها إلها. وبعضهم قالوا أن الله يتنازل عن حقوقه كليا أو جزئيا لعبد يختاره من عباده. وبعضهم اعتبروا كل المظاهر العظيمة من الكون ذوات لها إرادة في إظهار صفات الله. وبعضهم ألَّهَ الأشياء الضارة والحيوانات المخيفة. واعتبر بعضُهم مظاهرَ الحسن مظاهرَ لله تعالى ووصفوها بأوصاف الألوهية.

ولقد تكفل الإسلام بتفنيد هذه الأقاويل والردّ عليها، وعرض الحجج الدامغة لدحض هذا البهتان العظيم، وفصّل صفات الله تعالى تفصيلا لا نجد له نظيرا في كتاب آخر.

ثم إن الملائكة هي العلّة الابتدائية والأساسية للكون بعد الله تعالى. ولقد برّأهم القرآن أيضًا من العيوب والنقائض التي يُرمَون بها فقال: ﴿ لا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم: ٧).

وبذلك أبطل التهم التي قذف بها اليهود الملائكةَ من أنهم ارتكبوا معصية وأنهم أعرضوا عن أمر ربهم. ويقول الهندوس أن الآلهة أي الملائكة اكتسبوا ذنوبا فلا بد من تبرئة الملائكة من هذه التهمة ولأنهم المنبع الرئيسي لحوافز الخير، ولا شك أن العين الصافية إذا أصبحت طهارتها عرضة للشك حُرم الإنسان منها وسُدَّ في وجهه باب الخير.

والعماد الثالث لكمال صرح البناء الخُلقي والروحي للإنسان هو كلام الله، لأنه يورث الإنسان المعرفة واليقين، لكن أصحاب الديانات والفلاسفة لم يرتدعوا عن اتهامه أيضًا. فبعضهم زعموا أن الوحي أفكار صافية.. مع أن تسمية الأفكار وحي، يشجع كل شخص على نسبة أفكاره إلى الوحي، وهذا يحول دون اليقين الذي يتأتى عن طريق الوحي اللفظي.

والقرآن يرد على كل ذلك بقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾(النساء: ١٦٥)، أي كلم الله موسى شفويا وبالكلمات. وكذلك يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(التوبة: ٧).. أي إذا التجأ إليك أحد من المشركين اللذين يحاربونك فأجب طلبه كي يسمع ما أُنزل إليك من كتاب الله الذي كله كلام الله وليس لفظًا من صنع الإنسان. ثم إذا سمع هذا الرجل ذلك الكلام أراد أن يعود إلى أهله، فعليك أن توصله آمنا إلى قومه ومأمنه.

فالقرآن الكريم قد برأ الكتب السماوية أيضًا من تهمة أنها ليست من كلام الله، وأنها من أفكار العباقرة التي نسبوها إلى الله تعالى.

والأساس الرابع لبناء الدين هو وجود الأنبياء، والتعاليم التي أوردها القرآن عنهم هي أسمى من كل بهتان. فأوّلا إن القرآن يصفهم بأنهم عباد مقربون مطهرون كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥). وقد شهدت هذه الآية بصورة مبدئية على نزاهة حياة الأنبياء، وردَّت على جميع التهم التي تنسب إلى الأنبياء عموما سواء ورَد ذكر هؤلاء في القرآن أم لم يرِد. مثلا: يقول الهندوس عن نبيهم كرشنا انه كان يسرق الزبدة وينهمك في التمتع بالنساء والعياذ بالله. وجاء عنه أن أمّه قالت له: يا بني عندي تسعمائة ألف بقرة حلوب، فكُل واعبث واسرق

ما شئت مِن الزبدة، ولا تدخل بيوت الناس لأجل الحليب واختلاس الزبدة. (كتاب شريمد بها غوت بوران، الباب العاشر).

أما الأنبياء الذين ذكرهم القرآن بأسمائهم لأسباب خاصة ومصالح جليلة.. فإنه أبرزَ عظمتَهم وشأنهم، وبرأهم من التهم التي وجهت إليهم على وجه الخصوص. فمثلا: تقول التوراة إن آدم ارتكب معصية متعمدة أورثها لبنيه من بعده، ولكن القرآن برأه وبين أنه نسي و لم يتعمد الخطأ.. فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٦). وزُعم في التوراة أن سيدنا إبراهيم كذب عدة مرات، وهي فرية انخدع بها طائفة من المسلمين أيضًا، ولكن القرآن قال فيه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم: ٣٨).. أي أنه أتمّ العهد مع الله تعالى إتماما كاملا فكان مثلا أعلى في طاعة الله والتمسك في الخُلُق القويم كالعدل والإحسان والصدق وحسن المعاملة والرأفة والشفقة والستر على خلق الله والعفو.

ولقد قالوا أن موسى عليه السلام خدع المصريين وسلبهم حليّهم بأمر من الله (سفر خروج ١١: ٢)، ولكن القرآن يقول على لسان قومه: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (طه: ٨٨).. أي بعد ذهاب موسى إلى الطور وقعت طائفة من بني إسرائيل في الشرك بالله تعالى، وعندما رجع وغضب عليهم قالوا له: لم نفعل هذا من تلقاء أنفسنا وإنما خدعنا السامري. والواقع أننا لم نُرِد الاحتفاظ بحلي المصريين التي حملناها كُرها، وسلمناها للسامري بحسب طلبه. فهذه العبارة تبيّن أن المصريين هم الذين حمّلوهم هذه الحلي كي يرحل عنهم بنو إسرائيل الذين كانوا يظنونهم سبب المصائب التي نزلت بهم.

ونسبت هذه التوراة إلى سيدنا موسى أنه عندما أراهم المعجزة كانت يده مصابة بالبرص (سفر الخروج ٤: ٦)، في حين أن التوراة تنجس المبروص (اللاويين ١٣: ٨)، والبرص مرض مكروه. فيطهره القرآن من هذه الوصمة ويقول: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (طه: ٢٣).

وتزعم التوراة أيضًا أن هارون عليه السلام صنع لبني إسرائيل عجلا ووجَّههم نحو الشرك. ولكن القرآن الكريم يرفع عنهم هذا الريب فيقول: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه: ٩١). وهكذا يكشف القرآن أن هارون لم يكن من المشركين بل من المبطلين للشرك.

وتقول التوراة الحالية أن سيدنا سليمان عندما تقدم به العمر أغرته زوجاته بعبادة غير الله (الملوك الأول، ١١: ٤)، ولكن القرآن برأه من هذه التهمة فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: ١٠٣)، أي أن سليمان بريء من الكفر ولكن اللذين رموه بالكفر هم الشياطين الكافرون.

وزعم اليهود أن سيدنا المسيح بن مريم عليه السلام كانت ثمرة بِغاء، والعياذ بالله، وانه جاء من نطفة يوسف النجار من غير زواج. (دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة جيسس، وكتاب حياة المسيح من وجهة نظر اليهود). ورماه بعض اليهود بأنه ابن الجندي الروماني (بنثيرا) نتيجة علاقة أثيمة مع أمه(دائرة المعارف اليهودية، ج٧، ص١٧٠). وطعن فيه اليهود بأنه كان مصابا بمس الشيطان، وأنه كان يتلقى الوحي الشيطاني من بعلزبول (مرقس٢: ٢٢).

لكن القرآن الكريم يطهرهما من هذه التهم كلها ويقول: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٢).. فهو يعلن طهارة الصديقة مريم التي حفظت كل منافذها و لم تحمل من روح شريرة، وإنما من روح طاهرة من عند الله تعالى.

وبرأ القرآن سيدنا عيسى من علاقة الشيطان فقال: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، فهو صاحب الآيات البينات، المؤيد بروح القدس، أي الملاك الطاهر المقدس.

واتُّهم عيسى عليه السلام من قبل أتباعه بتهمة الصلب وهكذا وصموه باللعنة حسب ناموس التوراة كما بينه بولس: "المسيح افتدانا من لعنة الناموس.. إذ صار لعنة من أجلنا، لأنه مكتوب: معلون كل من علق على خشبة". (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٣).

وقد ورد عن موت المسيح على الصليب حسب زعم النصارى ومكثه في جهنم وموته ميتة اللعنة في إنجيل نقوديمس ٢٠. وكذلك جاء في رسالة بطرس الأولى ما يلي: "فإن المسيح أيضًا تألم مرة واحدة من أجل الخطايا، البارُّ مِن أَجلِ الأَثَمةِ، لكي يقرّبنا إلى الله مُماتًا في الجسد ولكن مُحيًا في الروح الذي فيه أيضًا ذهب فَكَرَزَ للأرواح التي في السجن، إذا عصت قديما حين كانت أَنَاةُ اللهِ تنتظر مرة في أيام نوح، إذ كان الفلك يُبنى، الذي فيه خَلَص قليلون" (رسالة بطرس الأولى ٣ : ١٨-٢٠)

وقد ورد في تفسير "ماتيو بول" أن المراد بالسجن هو جهنم.

ولكن القرآن الكريم يرفع هذه التهمة عن المسيح قائلا على لسانه: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٤)، أي أن اللذين يرمونني بأنني من ولادة غير شرعية فإنهم كاذبون، لأن ولادتي شملها سلام الله، واللذين يدّعون بأني مت مصلوبا ملعونا هم أيضًا مخطئون.. لأن موتي يشمله سلام الله تعالى، وسوف أنجو من ميتة اللعنة. ومن يزعم أني سوف أتحمل ذنوب الآخرين وأبقى في الجحيم ثلاثة أيام فهم أيضًا مخطئون.. لأنني سوف أبعث تحت ظل سلامة عز وجل.

والأساس الخامس للدين هو الإنسان نفسه لأنه مهبط الوحي الإلهي. وقد حاولت بعض الأديان أن تهدم هذا الأساس أيضًا؛ حيث تقول المسيحية بأن الروح الإنسانية أثمت بسبب ما ارتكب آدم من الذنب، وأن الإنسان بطبعه ميّال إلى الإثم. (رسالة بولس إلى أهل رومية، ٥: ١٢).

والدين الهندوسي أيضًا يصرح بأن الإنسان رغم كفاحه لا يمكن أن يتطهر، بل لا بد له أن يخضع للتناسخ المتكرر. (ستيارث بركاش، لباندت دياندجي مؤسس ديانة آريا سماج: باب ٩).

لكن القرآن الكريم، على عكس كل الأديان، يبرئ الفطرة الإنسانية ويقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا*﴾ (الشمس: ٨-١١). أي نحن نقدم النفس الإنسانية كشهادة على أننا خلقناها مترهة من كل عيب، ووضعنا في فطرتها قوة التمييز بين الخير والشر. فالذي يحفظ روحه من شوائب الشر يكون في منجاة، ومن يعكر صفاء الفطرة الإنسانية بالشوائب الدنيوية ويحط من مكانتها العالية يلقى الخسران.. بمعنى أن الروح الإنسانية تُخلق طاهرة نقية، لكن الناس بعد ذلك يدنسونها، وليس صحيح أنها تنجست بذنب آدم أو غيره.

وكذلك يبطل القرآن دور التناسخ ويقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٣٣). فاستخدام الجملة الاسمية ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمُ﴾ يفيد معنى الدوام، أي تكونون في سلام دائم. وكذلك يقول: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود: ١٠٩). فالسعداء سوف يبقون في الجنة بحسب مشيئة الله ما دامت سماوات الجنة وأرضها باقية. ولقد قضى الله عز وجل أن يمتعهم في الجنة بنعمةٍ غير مقطوعة وأن لا يخرجهم منها أبدا. ولقد أقرّت هذه الآية الكريمة حقَّ الفطرة الإنسانية المتعلق بالنجاة الدائمة الذي أبطله الهندوس الآريون من خلال عقيدة التناسخ.

فالإسلام قد أزال جميع التهم التي ادعاها أتباع الأديان المختلفة والفلاسفة على جميع دعائم الدين.. إذ برأ اللهَ عز وجل والملائكةَ والكتب والرسل والفطرة الإنسانية من كل ما نسب إليهم من افتراءات. وهذه مزية لا يملكها كتاب آخر في حالته الراهنة.

ولو لم يكن للقرآن فضل سوى هذا الأمر لكفى بذلك وحده دليلا يُثبت ضرورته رغم وجود الكتب الأخرى. فمن الجلي أن الذي يسيء الظن بالله تعالى ويرتاب في صفاته عز وجل.. لا يمكنه أن يتصل به ويتمتع برحمته الواسعة. والذي يسيء الظن بالملائكة لا يستطيع أن يعزز علاقته بهم، ويستفيد من توجيهاتهم الظاهرة. والذي لا يؤمن بالأنبياء أو يؤمن ببعض ويكفر ببعض، ليس بإمكانه أن يتبع أسوتهم الحسنة ومُثُلهم العليا. والذي يشك في كلام الله سيحرم حتما من تأثيره الطيب وثماره النافعة. ومن يظن بالفطرة الإنسانية الظنون سوف تضعف جهوده لتطهير النفس بالعزيمة الصادقة التي لا بد منها للحصول على الطهارة الروحية. فوصف القرآن المجيد بأنه ﴿لا ريب فيه﴾ قد فتح طريقا للاستفادة من مصادر الخير. والانتفاع بمثل هذا الهدى يكفل له النجاح، ويضمن له النجاة، ويمكِّن الأمل في القلوب.

والذين يسارعون إلى الطعن في القرآن مع جهلهم الفاضح باللغة العربية، يفسرون عبارة ﴿لا ريب فيه﴾ على أنها تعبير عن القلق الذي شعر به الرسول ﷺ لما في القرآن من ريبة، وأنه ينفي عن نفسه الريب لإحساسه بما فيه من ريب (القسيس ويري، نقلا عن الترجمة الرومية للقرآن). وهذا الاعتراض يكشف عن سخف ساذج للمعترض الذي ينسى أو يتناسى أن سورة البقرة ليست أول الوحي، وإنما نزلت بالمدينة المنورة بعد أكثر من ثلاث عشرة سنة تَتابع فيها نزول القرآن، وأبدى الكفار في هذه الفترة كثيرا من الشبهات، وحُقَّ للقرآن أن يرد التهمة بعد أن تلقى الطعن والتجديف مدة طويلة من الزمن. وهل من الخطأ أن يرد الكتاب عن نفسه التهمة بعد أن سددت إليه؟ وهل يقول أي عاقل بأن رد التهمة إحساس بالذنب؟ أنها تهمة خرقاء، لا يتمسك بها إلا حاقد متعصب، يتعامى عن الحقائق الناصعة. من أمثال صاحب الترجمة الرومية للقرآن، والقسيس ويري whery، الذي يصدقه فيما ذهب إليه.

ومن المؤسف أن القسيسَيْن لم يتعمقا في دراسة كتبهما المقدسة؛ إذ لو درساها حقا لما تجرآ على الاعتراض على القرآن، لأنهما بهذا يعرضان كتبهما للطعن والتجريح.. إذ إن الأسلوب الذي يعترضان عليه نفسه يتكرر فيها، ونسوق بعض هذه العبارات:

"كل كلمات فمي بالحق، ليس فيها عوج ولا التواء" (أمثال ٨: ٨).

"أنا الرب المتكلم بالصدق مخبر بالاستقامة" (إشعياء٤٥: ١٩).

"هذا حق وجدير بالقبول. صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول" (رسالة بوليس الأول٤: ٩)

يتضح من هذا أن الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) قد اختار أسلوبا مماثلا لأسلوب القرآن. فمؤلفو العهدين إذن أوْلى بالتشكك! والحق أن هذه الشُّبهة لا تصح في القرآن أو الكتاب المقدس، لأن دفع الاتهام لا يدل على الشك، وإنما يؤدي إلى اليقين والتأكد من صدق الدعوة. والرأي عندي انه لا مجال للشك في الوحي السماوي إذا بدأ بهذا الأسلوب، لأن الإنسان لا يعرف بما سيلقاه قوله من رفض أو قبول. ولكن الله تبارك وتعالى عليم بما سيكون عليه موقف الناس من الكتاب، ولذلك يناسب المقام نفي الريب عنه، ومثل هذا الفعل يقوم دليلا على علمه تعالى بالغيب.

ولما كان الريب يدل على الشك القائم على سوء الظن فقوله: ﴿لا ريب فيه﴾ يشير إلى أن القرآن لا يحتوي شيئا تتكون عناصره من سوء الظن والعناد للحق، بل كل ما فيه يقيني محقق وليس ظنيا ملفقا. وليس مثل هذا التحدي بالأمر البسيط، بل إنه من أعظم الآيات على صدق القرآن المجيد. ونقول على وجه الإجمال أن القرآن لم يأت بعقيدة إلا وعززها بالشواهد، وتفصيل ذلك يأتي إن شاء الله في مواضعه عند تفسير الآيات.

إن أفضلية القرآن تتأكد بهذا القول أيما تأكد، لأن ذكر أمر أو أمرين معلومين بالأدلة يكون يسيرا، أما أن يكون كل ما في القرآن مدعما بالدليل الذي يزيح عنه ستار الظن والاضطراب، ويوقفه موقف اليقين والثبوت.. فلا يسع المنصف إلا أن يثق في مثل هذا الكتاب ولا يشك في صدقه أبدا.

ومن معاني ﴿لا ريب فيه﴾ أنه لا شك في كون القرآن محفوظا. وورود هذا الكلمات بعد ﴿ذلك الكتاب﴾ يدل على أنه لا كتاب بعد هذا الكتاب، وأنه صحيفة أخيرة أنزلت لهداية الناس.. لأنه، كما ذكر من معاني ﴿ذلك الكتاب﴾ أن هذا هو الكتاب الكامل الذي يتضمن ما يلبي جميع حاجات الإنسان، فما دام كذلك لا يمكن أن يترل كتاب آخر إلا إذا تطرق الضياع إليه، لأن القانون الجديد يدعو إليه أمران اثنان: إنما أن يكون القانون السابق ناقصًا، وظهر عليه القصور والعجز أمام مهمّات زمن ما، أو فُقد كلُّه أو بعضه، ومسّت الحاجة إلى إعادة تدوينه. لذلك صرح الله عز وجل بهذا الأسلوب.. أي قول ﴿لا ريب فيه﴾ بعد ﴿ذلك الكتاب﴾ أن هذا الكتاب الكامل لن يزال محفوظا من حوادث الدهر، ولن يأتي زمن ينتاب فيه الناسَ ريبٌ فيما إذا كان لفظه لا يزال كما نزل من عند الله تعالى أم أنه قد تغيّر.. وبما أنه لن يأتي على هذا الكتاب مثل هذا الزمن.. فلن يُنسخ أبدا، بل لا بدّ للناس إلى يوم القيامة أن يطبّقوه من أجل حياهم الروحية.

أن هذا الإعلان العظيم ليدل على ميزة عظيمة للقرآن. فاليوم، وقد مرت على نزوله أكثر من أربعة عشر قرنا.. لا يزال الأعداء فضلا عن الأصدقاء يشهدون على صحته. وهناك من الشواهد الذاتية والخارجية ما تدل على أصالته وسلامته من التحريف. يشهد بذلك رجل مثل السير وليام موير، ويقول:

There is otherwise every security internal and external that we posses that text Mohammad himself gave forth and used.

(Life of Mohammad by Sir William Muir P.561)

أي أن لدينا كل ضمان داخلي وخارجي على أن الكتاب الذي بين أيدينا هو نفس نص الكتاب الذي قدمه محمد للناس واستعمله بنفسه.

والقرآن وحده يتمتع بهذه الفضيلة، التي تدل دلالة واضحة على ضرورته رغم وجود الكتب الأخرى، لأن الكتاب الذي يتطرق إلى صحته الشكّ لا ينشرح الصدر للعمل به، في حين أنه لا بدّ من الانشراح الكامل في الدين والعقيدة. وكتب العهد القديم والجديد والفيدا والزند أفستا كانت موجودة قبل القرآن، ولكن لم يكن أي كتاب منها محفوظا بصورته المترلة. فأتباع الزند أفستا يعترفون بأنفسهم أن معظمه قد ضاع، والنسخة الحاضرة منه بحالة لا تدع مجالا للشك في ضياعه (دائرة معارف الأديان والأخلاق، مجلد٢).

والفيدا أيضًا غير مصون، ونسخه مختلفة عن بعضها اختلافا كبيرا مما يشكل دليلا واضحًا على التحريف. وقد بلغ هذا التحريف إلى حد اختفاء فقرات من نسخ ووجودها في أخرى. ولقد شهد بتحريفه عالم هندوسي قبل عدة قرون، قال: "إنهم خلطوا الكلام الإلهي بالكلام الإنساني، وشوهوا الأصل أنواعا وأشكالا" (كورم بوران بورو ارده، باب ٢٠، فقرة٤٤، ٤٦). ولقد صدق جمهور الهندوس وعلماؤهم في الزمن الحاضر بهذه الحقيقة أيضًا.. الأمر الذي يكشف عن حالة الفيدا الراهنة.

وتشهد التوراة الحالية على نفسها بالتحريف حيث جاء فيها: "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب، ودفن في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم" (تثنية: ٣٤).

"ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه" (عدد: ١٠).

ولا يقول عاقل بأن هذا الكلام نزل على موسى عليه السلام، وإنما أضيفت هذه الفقرات إلى التوراة بعد وفاة موسى بمدة طويلة.

وعلاوة على ما ألحق بالتوراة من كلام البشر نجد فيها من التناقضات ما لا يمكن معها الادعاء بأن هذا الكتاب هو نفس ما أنزل إلى موسى، لأن كلام الله تعالى منزه عن الاختلاف.. وهاك بعض الشواهد:

جاء فيه أن الله خلق الحشرات والحيوانات أوّلاً، ثم بعد ذلك خلق الإنسان (تكوين١: ٢٤ إلى ٢٧)، ولكنه في موضع لاحق يقول أن الله بعدما خلق آدم خلق أنواع الحيوان والطيور (تثنية ٢: ١٨ و ١٩).

وجاء فيه أن الله تعالى أمر نوحا أن يضع في سفينته سبعة أزواج من كل نوع طاهر، فعمل نوح كما أُمر (تكوين ٧: ١ – ٥)، لكنه في نفس الإصحاح يقول أن الزوجين، أي الذكرين والأنثيين، من كل نوع طاهر دخل السفينة حسب ما أمر الله!! (تكوين ٧: ٧ –٩). فهل هي سبعة أزواج أم زوجان؟

وهناك عشرات من أمثال هذا التناقض الذي يكشف بوضوح أن هذا الكتاب لم يعد بالصورة التي نزل بها على موسى عليه السلام.

والأناجيل كذلك، لا نجد فيها ما نعتمد عليه في تمييز الوحي عن غيره.. لأن الأناجيل كثيرة، ورجحوا منها أربعة عن طريق الاقتراع بلا مرجح، وقيل أن هذه الأربعة هي أصحها وأوثقها. ولكن هذه الأربعة أيضًا يندر فيها كلام المسيح، أما كلام الله فلا يوجد فيها مطلقا. نعم، هناك بضع كلمات نسبها المسيح إلى الله، ولكن الوحي، سواء كان من كلام الله أو من كلام المسيح، يكاد ينعدم في الأناجيل. أنها تضم أحداثا تاريخية لا تمت إلى الوحي بصلة، وما هي إلا وجهة نظر لبعض المؤرخين وليس غير.

ولا تنتهي القضية عند هذا الحد لأن الأناجيل التي يتكون منها العهد الجديد متناقضة أشد التناقض، وكذلك تراجمها في مختلف الأزمان متعارضة أشد التعارض، وإليك بعض الشواهد:

يقول مَتّى في إنجيله إن المسيح أوصى تلاميذه قائلا: "لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم، ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا" (١٠: ٩-١٠). ولكن (مرقس) في إنجيله يقول: "أوصاهم أن لا يحملوا شيئا للطريق غير عصا فقط، لا مزودا ولا خبزا ولا نحاسا في المنطقة، بل يكونوا مشدودين بنعال، ولا يلبسوا ثوبين" (٦: 7- ٩).

فأحدهم يقول لا تأخذوا حذاء ولا عصا، والثاني نصحهم أن لا يأخذوا غير عصا وأن يكونوا مشدودين بالنعال. وهذا تناقض بيّن.

يقول (متى): "وأيضًا كان اللصان اللذان صُلبا معه يعيرانه" (٢٧: ٤٤).

ويتفق (مرقس ١٥: ٣٣) مع (متى) في ذلك، ولكن (لوقا) يخالفهما ويقول: "وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدف عليه قائلا: إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا، فأجاب الآخر وانتهره قائلا: أولا أنت تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه".. ثم قال ليسوع: "اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك. فقال له يسوع: الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس". (٢٢: ٢٩، ٤٠، ٤٢ و ٤٣).

ويقول (مرقس) أن المسيح انتهى من المحاكمة الساعة الثالثة (١٥: ٢٥). ولكن (يوحنا) يعارضه ويقول إنه كان في محكمة بيلاطوس نحو الساعة السادسة. (١٩: ١٤).

وفي (متى) أن يهوذا الاسخريوطي الذي ساعد على اعتقال المسيح خنق نفسه منتحرا (٢٧: ٥)، لكن ذُكر في (سفر الأعمال) أنه سقط على وجهه وانشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها (١: ١٨).

وهناك اختلاف غريب حول الحوادث التي وقعت في اليوم التالي ليوم الصليب. يقول (يوحنا): "وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرا والظلام باقٍ فنظرت الحجر مرفوعا" (٢٠: ١). فالزائرة امرأة واحدة.

ولكن (متى) يقول: "وبعد السبت عند الفجر الأول للأسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظرا القبر" (٢٨:١)، فالزائر امرأتان. ولكن (مرقس) يخالف السابقَيْن ويقول "وبعدما مضى السبت اشترت مريم المجلية ومريم أم يعقوب وسالومة حانوطًا ليأتين ويدهنه. وباكرا جدا في أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس" (١٦: ١-٢). فالزائرات ثلاث نسوة. ولكن لوقا يخالف الجميع فيقول "وكانت مريم المجلية ويوحنا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن اللواتي قلن هذا للرسل" (٢٤: ١٠). فكيف يمكن مع هذه التناقضات البينة أن نسلم بأن هذه الأناجيل هي كلام الله؟ إن هذا الشاهد وأمثاله

كثيرة من تناقض الأناجيل تؤكد أنها ليست منـــزهة عن الريب والشك. أما النسخ المختلفة للعهد الجديد ففيها من الاختلاف ما يزيد الأمر ريبة، واليكم بعض الشواهد:

١- في إنجيل (متى) المطبوع قبل عام ١٩٣٠، نجد الفقرة التالية (وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم (١٧: ٢١)، ولكنها حذفت من النسخ المطبوعة عام ١٩٣٠ وما بعدها .

٢- وفي (متى) قبل عام ١٩٣٠ "فقال له: لماذا تدعوني صالحا. ليس أحدا صالحا إلا واحد وهو الله (١٩: ١٧)، ولكنها حرّفت في الطبعات التالية، إلى "لماذا تسألني عن الصلاح".

٣- وجاء في (متى) أيضًا: "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون، لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولِعِلةٍ تطيلون صلاتكم، لذلك تأخذون دينونة أعظم" (٢٣: ١٤).. وهذه أيضًا حذفت من طبعة ما بعد ١٩٣٠.

٤-وتكرر هذا الحذف من إنجيل متّى في (٢٧: ٣٥).. "لّما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها لكي يتم ما قيل بالنبي.. اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي ألقوا قرعة".

٥- وكذلك حذفت الفقرة (٥: ٤) من إنجيل يوحنا "لأن ملاكا كان ينـــزل أحيانا في البِركة ويحرك الماء، فمن نـــزل أولا بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه"

٦- وفي إنجيل يوحنا نجد في النسخة المطبوعة في (مرزابور، الهند) حاشية تقول أن الفقرات من (٧: ٥٣) إلى (٨: ١١) ليست موجودة في أكثر النسخ المخطوطة.

فعلماء النصرانية أنفسهم يعترفون أن بعض الفقرات التي في الإنجيل لم تكن في الواقع جزءًا منه، وأن النسخ القديمة يختلف بعضها عن بعض، إذ يوجد في بعضها طائفة من الفقرات التي لا توجد في البعض الآخر. فهذه الأمور كلها لتنهض دليلا حاسما على أن الأناجيل الحالية ليست مترهة عن الشك والشبهات، بل إنها لدليل قاطع على تحريف الإنجيل والزيادة فيه.

فعلى الرغم من وجود هذه الكتب المحرفة المنسوبة إلى الله كان العالم بحاجة ماسة إلى كتاب تكون كل كلمة منه محكمة متسمة باليقين، ويعترف الجميع معارضين ومؤيدين بصحته وصيانته من التحريف. فقوله تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب فيه) يشير إلى هذا المعنى في حق القرآن الكريم ويؤكده.

وخلاصة القول، أن نزول القرآن كان ضرورة لها كل المبررات، لأن الكتب السماوية التي كانت موجودة قبل نزوله أصابها التحريف، وهذا مدعاة لكتاب جديد يمكن أن يعمل الناس وفق أحكامه وتوجيهاته.. وهم مطمئنون إلى أن كل كلمة فيه من عند الله تعالى. ولذلك يعلن القرآن بعد إثبات كماله أنه سالم من أي ريب.. حتى يبين الضرورة الداعية إليه بعد أن تطرق الشك والاضطراب إلى ما سبقه من كتب.

ومن معاني الريب أيضًا الهلاك والدمار، ومن هذه الناحية تدل عبارة ﴿لا ريب فيه﴾ على أن هذا الكتاب.. علاوة على أنه كامل جامع لكافة الفضائل.. فهو أسمى من أن يكون فيه ضرر ما. إن بعض وصفات العلاج قد تفيد في علاج مرض معين ولكنها قد تسبب أعراضًا مَرَضية جانبية.. ولذلك يطمئن القرآن بني الإنسان أنه علاج لا ينجم عنه ضرر قط لا في الأمور المادية ولا في الأمور الروحانية، فهو خير محض. ويتأكد هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه: ٣). فليس في القرآن توجيه يعرقل التقدم الروحي أو المادي للإنسان بل هو خير صرف. وهذا ما يجعله ذا مكانة تسمو فوق كل كتاب.

ومن معاني الريب الحاجة.. فيعني قوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾، أنه كتاب جامع، لا يحتاج إلى شيء من خارجه، فما من حاجة إنسانية اعتقادية أو عملية أو خلقية أو اقتصادية أو حضارية إلا ويلبيها القرآن. وهذه ميزة قد اعترف بها حتى الأعداء. فقد ورد في الحديث: "قال رجل من اليهود لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لو علينا أُنزلت هذه الآية: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾.. لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. فقال عمر: إني أعلم أي يوم أنزلت هذه الآية، أنزلت يوم عرفة في يوم الجمعة" (الترمذي، كتاب التفسير). فاجتمع في ذلك اليوم عيدان، لأن يوم الجمعة عندنا عيد أيضًا.

ويروى أن ابن عباس قرأ ﴿اليوم أكملت لكم دينكم..﴾ أمام يهودي فقال له لو نزلت علينا لاتخذنا يوم نزولها عيدا. فقال ابن عباس: لقد نزلت في يوم اجتمع لنا فيه عيدان. (المرجع السابق).

فالقرآن على صدقه وخلوه من كل شك، كتاب لا ينكر حقيقة بل يعترف بالحقائق، ويذب التهمة والمظنة عن أسس الدين، ويعتمد على اليقينيات لا الظنيات، وأنه محفوظ إلى يوم القيامة، وانه لا يعوق تقدم البشرية ولا يؤذي العاملين به، وإنه لتوجيه كامل لكل ضرورات الحياة الإنسانية أفرادا وجماعات.

قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾. بعد أن بينت عبارة ﴿لا ريب فيه﴾ فضائل القرآن السلبية، أي ما تنزّه عنه من سلبيات، تبين لنا عبارة ﴿هدى القرآن﴾ فضائله الإيجابية، أي ما اتصف به فعلا من إيجابيات. وتهدف هذه الصفة إلى أن القرآن غني بما يتوق إليه الإنسان للاتصال بخالقه. إن الفطرة السليمة تتقدم مندفعة بتلاوة القرآن نحو الله ولا يمكن بغير هذا الاندفاع أن تخطو الأرواح خطوات الشوق والمحبة بمجرد الأفكار الفلسفية. لأن الفلسفة قد تثير الفكر، ولكنها لا تثير العاطفة الجياشة التي لابد منها لاندفاع الفطرة الإنسانية نحو التطور المطّرد لإنجاز العمل الذي اضطلعت به. يستطيع الفيلسوف إلقاء خطاب رنّان حول الإيثار وخدمة الغير، ولكن الأم الجاهلة التي لا تدرك ما يقوله الفيلسوف.. تقدم في سبيل طفلها مثالا عمليا للتضحية والتفاني ما لا يستطيع الفيلسوف أن يأتي بعُشْرِ مِعشاره. من أجل ذلك لا

ينجح الكتاب في رسالته الإصلاحية الشاملة إلا إذا كان ﴿هدى للمتقين﴾، أي قادرا على أن يلهب عاطفة الحب في العاملين به بعد أن يطهر قلوبهم بآياته، ويزودهم بميل شديد للتقدم إلى الله تعالى، والعطف على المخلوق. والقرآن بهذه الكلمات يهدف إلى تحقيق هذه الغاية، ويقول أن هذا الكتاب الكامل الخالي من الريب والمضار يكسب الإنسان طاقة التقدم التي يسير بها نحو الحب الكامل لله عز وجل.

والهدى يعني كذلك ما يُبعث به الأنبياء من هداية. ومن هذه الناحية تقول الآية: أن الذين يريدون ألا يُحرموا من إرشاد الله، ولا ينقطع عنهم توجيهه.. سيجدون في هذا الكتاب ما يحقق رغبتهم. وأيًّا كان نصيب المرء من التقوى فسيكون له بغيته من الاهتداء في تعاليم هذا الكتاب التربه الذي يطمئن إليه القلب وتهدأ به الثائرة ويشعر أنه على هدى من ربه، وليس تابعا للعقل فقط، وانه إذا استعان بالله تعالى استطاع أن يتقدم واثقا مطمئنا بعيدا عن الشك والاضطراب.

والهدى أيضًا التوفيق لمزيد من العمل ورفع المستوى الفكري للعامل.. وبهذا المعنى تقول الآية: أن القرآن الكريم يمتاز بقوة عجيبة، فإذا عمل الإنسان بحكم من أحكامه فإنه يتشوق بهذا العمل إلى مزيد من التقدم في الخيرات، والله يوفقه لذلك توفيقا متواصلا.. يجلو تفكيره، فيتقوى ويزداد إقداما وتنفتح له الطرق الدقيقة للتقوى.. وكأنه بذلك يسلك مسالك التقوى اللانهائية، ولا يمكن أن يتحدد مدى تقدمه.. كما يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد: ١٨). فالتقوى والهداية ليس لهما حد أو نهاية بل لهما منازل. والقرآن يهدي المؤمن حسب مرتبته من الإيمان إلى مرتبة أخرى أعلى منها، وهذا الارتقاء التدريجي مستمر إلى مراتب غير متناهية. ويقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت:٧٠). فالذين يكافحون لأجل الاتصال بالله تعالى ويسلكون الطرق التي حددناها لذلك.. سنبين لهم الطرق المتتابعة الموصلة إلينا. وفي هذه الآية إشارة إلى أن سبلنا متوالية غير منتهية وكذلك يقول: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٩) ففي الحياة الآخرة يأتي رسول الله ﷺ وأتباعه المؤمنون إلى الجنة، ويتقدمهم ذلك النور المنبثق عن الإيمان والعمل.. يسألون الله تمام النور والغفران. ومعنى ذلك أن التقدم الروحي لا يرتبط بالحياة الدنيا وحدها، بل يتعداها إلى الحياة الآخرة أيضًا، ويتمتع فيها المؤمنون بهذا التقدم، ويستزيدون من القوى المساعدة على التقدم المستمر.

والخلاصة أن الهدى، كما فسرته الآيات المذكورة، دليل على ارتقاء لا نهاية له، وان القرآن وسيلة المتقين التي تمكنهم من التقدم المطرد.

والهدى أيضًا الخاتمة بالخير وبلوغ الغاية المنشودة، ألا وهي دخول الجنة. ومعنى ذلك أن الآية تهدف إلى بيان أن القرآن يتضمن من التعاليم ما يستطيع به المتقي أن يبلغ هدفه النهائي. ونظرا إلى أن سائر الملل تدعي بنفس الدعوة لذلك قد يبدو للقارئ أن دعوى القرآن هذه لا تقدم ما هو جديد وأفضل؛ ولكن إذا أمعنا النظر في المعنى الذي ذكره القرآن للجنة لتبين لنا ما يتصف به القرآن في هذا الموضوع من جدة وطرافة. فالقرآن لا يذكر أن الجنة دار التمتع للنعم في الآخرة فقط، بل يقول أن دخول الجنة الأخروية مرتبط بالجنة الدنيوية، فمن نال جنة الدنيا فاز بجنة الآخرة.. كما يقول عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٧).. فالذي يتقي الله حق تقاته له جنتان. ويقول أيضًا: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا﴾ (الإسراء: ٧٣). ومن لم يتق الله حرم نور الدنيا والآخرة، والمؤمن الذي يستنير بنور القرآن يتمتع في هذه الدنيا بتجلي الله، ويتحول إيمانه بالغيب إلى إيمان الشهود، ولا يعتقد بأنه سيرث جنة الآخرة بعد موته فحسب.. بل يكشف الله تعالى له صفاته في الدنيا، حتى أنه ليرى نفسه في الجنة قبل الممات. أما الموت الجسماني فيزيد شعوره الدنيوي جلاء بعد أن يتيسر له تجلي الله في هذه الدنيا.

ومن البين انه لا يبقى بعد هذا المقام اضطراب أو اشتباه، ومن ينَل هذا المقام يصبح بمنجاة من العثرات والعقبات، فكأنه في حضانة الله تعالى في الحياة الدنيا. فلا يكون -إذن- قول القرآن بأنه وسيلة لدخول الجنة ادعاء بلا دليل، بل إنه يقدم هذه الحقيقة كشاهد يكشف عن صدقه من كذبه في هذه الدنيا. ولم تخلُ الأمة الإسلامية يوما من أناس كانوا دليلا على صدق هذه الحقيقة. فظلوا يتمتعون بالاتصال مع الله تعالى وتجلّيه حتى دخلوا الجنة وهم في الدنيا.. أي أصبحوا بمأمن من إغواء الشيطان، وفي مرفق من النعم الروحية، وتشرفوا بكلام الله المتتابع، وأُكرموا بمنجاة الله، واستشفوا آياته البينات في أنفسهم، وجعلوها تتجلى في الآخرين.

ويقول بعض من لا يتدبر القرآن: إذا كان القرآن ﴿هدى للمتقين﴾ فقط، فلا بد من كتاب آخر يُكسب الناس التقوى قبل الاهتداء بالقرآن. فيقول القرآن موضحا: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ (الفتح: ٢٧).. أي أن التقوى الحقة لا تحصل إلا بالقرآن والإيمان به، بل هي التقوى الباقية الدائمة. إن الآية تقول بان أهل التقوى ذوي الصلة الوثيقة بالله هم المؤمنون بالقرآن. والآيات كثيرة تؤكد بأن القرآن هدى لجميع بني الإنسان على تفاوت درجاتهم الروحانية، وهو لا يخص فريقا دون فريق، بل يعم البشرية جمعاء.. فيقول تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾ (آل عمران: ١٣٩). ويقول: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦). ويقول القرآن: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الكهف: ٥٥). أي أن

القرآن يتضمن مثلا أعلى لكل ما يتصل بمصلحة بني الإنسان جميعا متقين كانوا أو غير متقين، وكلٌّ يجد فيه حسب وضعه من الروحانية ما يتقدم به إلى أعلى، ويسد حاجته من المهمات الدينية والدنيوية. ويقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الروم: ٥٩). وهذه الآية تؤكد مفهوم الآية السابقة تقريبا، والفرق الوحيد أن الله تعالى قد قال في الأولى (صرَّفنا) وقال هنا (ضَرَبْنا). والتصريف إشارة إلى تنوُّع الأساليب التي اختارها القرآن لتعليم الهدى، أما ضرب المثل فهو إشارة إلى بيان هدي القرآن بذِكر أمثلة صحيحة وواضحة من الفطرة الإنسانية. ويقول أيضًا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ (الإسراء: ٤٢). وهنا أيضًا لا تخص الهداية المؤمنين وحدَهم. ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢٢). ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (طه: ١١٤). فالقرآن يتوعد الكفار بهدف أن يصبحوا متقين.

وان كان الأمر كذلك فلماذا لم يقل القرآن أن أساسه التقوى الذي يقوم بناؤه عليه، بل قال إنه ﴿هدى للمتقين﴾؟ والإجابة على هذا التساؤل ذات شقين:

أولا: أن الآية في محل الإعلان عن أفضلية القرآن وبيان الحاجة إليه رغم وجود كتب أخرى، لذلك كان من الأنسب أن يذكر المراتب العليا التي يمتاز بها القرآن عن غيره من الكتب، والتي سكتت الديانات الأخرى عنها ولو بالإشارة.

وثانيا: أن التقوى تعني أيضًا الجانب الفطري منها.. كما يقول تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٩).. أي ألهمها قوة التمييز بين الخير والشر. فالتقوى هنا هي المحافظة على الفطرة، وهذا لا يختص بدين أو عقيدة. إن مَن يُدنّس فطرته ولا ينأى بها من عوامل الفساد لا يمكن له أن يهتدي ما لم يُرغم على ذلك إرغاما، والقرآن لا يقبل الإكراه في مسألة العقيدة بتاتا. فالذين يستعدون لقبول الحق ويطهرون فطرتهم هم الذين يهتدون بالقرآن ويبلغون الدرجات العلى، وأما الذين يأبون إلا البقاء على غيّهم وضلالتهم فأولئك قد حكموا على أنفسهم بالهلاك، وليسو بمهتدين إلا أن يُساقوا إلى ذلك سوقا، وليس هذا من الهداية النافعة.

وإذن فقوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ برهان على أهمية القرآن وضرورته مع وجود كتب أخرى، وبيان أنه وحي من الله تعالى الذي لا ينفع الهداية الروحانية سواه، ولا تجدي الكتب غير الإلهية نفعا مع وجوده. وهو الهداية الحقة التي لا بديل لها من الكتب السماوية السابقة للأسباب التالية:

١. القرآن كتاب كامل وغيره ينقصه الكمال.

٢. القرآن محفوظ من التحريف، وغيره لم يسلم من التحريف والاختلال.
٣. القرآن شامل لكل العالم والأمم، وغيره خاص بقومه. جاء ليحفظ كرامة الشخصيات الدينية المحترمة لدى الأمم جميعا، وجاء لإحياء كل ما ضاع من التعاليم السماوية السابقة.
٤. القرآن يقدم الفرص لمن أراد الاتصال بالله والتشرف بمكالمته، وغيره من الكتب لم يعُد صالحا لذلك بسبب نقائصه الداخلية والخارجية.

كل ذلك من المعارف الدقيقة لرائعة التي تشع من هذه الآية الصغيرة في عدد ألفاظها.. العظيمة في محتواها وأهدافها.. وهذا مثل من إعجاز القرآن الكريم.

قدمت هذا البحث بفضل الله تعالى على ضوء المعاني والتعاليم التي بينها مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، وأود أن أضيف هنا حكمة لطيفة من الحكم الكثيرة التي بينها لنا حضرته بصدد تفسير هذه الآية.. أنقلها لكم بنصها كي يتعرف القراء كيف أنه غاص في بحر هذه الآية العميق، وأتى بفرائد نادرة من لآلئ المعرفة الروحانية. قال عليه السلام:

" لتكميل أي شيء لا بد من توافر أربع علل:

أولا: أن يكون صانعه كاملا،

ثانيا: أن تكون المادة التي صُنع منها عالية الجودة،

ثالثا: أن تكون صورته في ذروة الجمال،

رابعا: أن تكون نتيجته محققة للغاية منه تماما.

أي علته الفاعلة، وعلته المادية، وعلته الصورية، وعلته الغائية: وبكمال هذه العلل الأربع يكون الشيء كاملا.

ولقد أعلن الله تعالى في مستهل القرآن المجيد بتوافر هذه العلل الأربع في حقه حيث يقول: ﴿الم﴾.. أنا لله أعلم، إشارة إلى كمال العلة الفاعلة. فالكتاب الذي يصدر عن العليم يكون أفضل وأكمل من الكتب التي تؤلفها شخصيات هي أقل منها علما وأنقص قدرة. ثم يقول عز وجل: ﴿ذلك الكتاب﴾.. هذا هو الكتاب الكامل، ولذلك فإن مادته فضلى المواد. ثم يقول ﴿لا ريب فيه﴾.. وهذا يدل على كمال العلة الصورية، لأن القرآن بلغته الفصيحة منقطعة النظير، وشكله المصون المحكم الفذ يمتاز بصورة رائعة متناسبة بريئة من كل عيب. فعِلّته الصورية أكمل وأتم من أمثالها في الكتب الأخرى. ثم يقول: ﴿هدى للمتقين﴾.. فعِلّته الغائية أيضًا أكمل، لأن الكتب السابقة تصل بالإنسان إلى درجة التقوى، أما القرآن فيبلغ بالإنسان أعلى مراتب التقوى ويشرّفه بكلام الله، ويمكّنه من الاتصال الكامل بخالقه.

هذا ملخص ما كتبه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية (عليه السلام).. ومن يتدبر في كتابه من أهل البصيرة يجد فيها هذه المعارف الكثيرة، بل وما هو أكثر وأروع.

ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٤

شرح الكلمات:

يؤمنون: آمنَه إيمانا: أمَّنه أي هيّأ له السلامة. آمنَ به: صدَّقه ووثق به. آمنَ له: خضع له وانقاد. والإيمان يتعدى نفسه كصَدَّقَ، وباللام.. باعتبار معنى الإذعان، وبالباء.. باعتبار معنى الاعتراف، إشارةً إلى أن التصديق لا يُعتبر بدون اعتراف (الأقرب).

فكلمة ﴿يؤمنون﴾ تدل على ثلاثة معان: التصديق والاعتراف واليقين الراسخ (تاج العروس).

الغيب: غابت الشمس وغيرها إذا استترت من العين، واستعمل في كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الإنسان، بمعنى الغائب. والغيب في قوله تعالى: (يؤمنون بالغيب) ما لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداهة العقول (المفردات). وقوله تعالى: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ أي يؤمنون بما غاب عنهم. والغيب ما غاب عن العيون وإن كان مُحصلا في القلوب أو غير مُحصّل، بل كل مكان لا يدرى بما فيه هو غيب، وكذلك الموضع الذي لا يدرى ما وراءه. غاب الرجل غيبا: سافر أو بان (اللسان).

فالغيب كل شيء لا تراه العيون الباصرة، ولا تدركه الحواس الظاهرة، رغم وجوده، وهو من الإيمانيات. فمعنى ﴿يؤمنون بالغيب﴾:

أنهم يعتقدون بكونه حقا يقينا كاملا، ويعترفون به، ويصدقونه.

وأنهم يعتقدون اعتقادا جازما بما سيحدث بعد هذه الحياة.

أنهم يؤمنون في حالة الغياب أي وقت انفرادهم أيضًا، فليسوا ذوي وجهين كالمنافقين.

يقيمون: قام قياما ضدُّ قعَد. قام الأمر: اعتدل. قام الأمر: دام وثبت. قام الحق: ظهر وثبت. وقامت السوق: نفقت. وأقام الصلاة: أدام فِعْلَها؛ نادى لها. وأقام الله السوق: جعَلها نافقة (الأقرب).

"قوله تعالى: ﴿يقيمون الصلاة﴾.. أي يديمون فِعْلَها ويحافظون عليها. ولم يأمر تعالى بالصلاة حيثما أمَر ولا مدَح به حيثما مدح إلا بلفظ الإقامة تنبيهًا على أن المقصود منها توفيةُ شرائطها لا الإتيانُ بهيئاتها." (المفردات)

القيام: العزم، قام للأمر: عقد العزم لإتمامه (اللسان).

الصلاة: فَعْلَةٌ مِن (صَلَّى)، والألف منقلبة عن الواو. الصلاة في الشرع: عبادة فيها ركوع وسجود، وتعني أيضًا الدعاء؛ الدين؛ الرحمة؛ الاستغفار. والصلاة من الله الرحمةُ، ومن الملائكة الاستغفارُ، ومن المؤمنين الدعاءُ، ومن الطير والهوام والتسبيحُ، وهي لا تكون إلا في الخير بخلاف الدعاء... فإنه يكون في الخير والشر. والصلاة حسنُ الثناء من الله على الرسول ﷺ. (الأقرب)

والصلاة التعظيم والبركة. (التاج)

ويسمى موضعُ العبادة الصلاة. (المفردات)

فيعني قوله تعالى ﴿يقيمون الصلوة﴾ أنهم:

١. يصلون جماعةً،

٢. يؤدون الصلاة وفقا لشروطها ومواقيتها،

٣. يعمرون المساجد بتوجيه الناس إلى الصلاة،

٤. يشوّقون الناس للصلاة،

٥. يداومون عليها دون انقطاع،

٦. يحافظون عليها كشيء عزيز، فلا يهملونها فتنهار.

رزَقْنا: الرزق: العطاء. رُزقتُ علمًا: أُعطيتُه. والرزق: النصيب والحصة قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (سورة الواقعة: ٨٣). والرزق ما يُتغذى به (المفردات).

والرزق ما ينتفع به. ورزقه الله أي أوصله إليه (الأقرب).

ينفقون: أنفق ماله: صرفه وأنفَدَه. أنفق التاجر: نفقت تجارته. وأنفق السلعةَ: رَوَّجَها. ونفقت المرأة أو السلعة: كثُر طلابها وخطابها. النافق من المال: ما يبيعه الناس فور وصوله إلى السوق (الأقرب). فالإنفاق يدل على إخرج الشيء وترويجه بدون انقطاع.

التفسير: تؤكد آيات عديدة في القرآن الكريم وجوب كون الإيمان ثابتا على قواعد من الأدلة والبراهين، لا على مناكب الوهم والاضطراب. وإذا كان الإيمان بالغيب هو الصفة الأولى في المؤمن وتأتي في المقدمة، فإن ذلك لا يعني التصديق الأعمى بما لا يُرى، أو الاعتقاد بأمور لا تُحس أو لا تُدرك عقلا، فليس أبعد عن روح القرآن مِن مثل هذا الاعتقاد المفتقر إلى ما يؤيده من تعليل وإدراك. والحق أن القرآن يستنكر ذلك بشدة. تأمل الآيات القرآنية التالية:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأحقاف: ٥).

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٣٦).

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾(الأنعام: ١٤٩-١٥٠).

﴿إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾(النجم: ٢٤).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩).

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٥).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان:٧٤).

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: ١٠٩).

فالقرآن الكريم يلح على الدليل العقلي والعلمي، ويرفض الوهم والظن والاعتقاد الأعمى.

كما أن لفظة ﴿الغيب﴾ في القرآن الكريم لا تعني الأمور الخيالية غير الحقيقية، ولكنها تعني الأشياء الحقيقية المؤكدة، وإن كانت مستورة عن العين. ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحجرات: ١٩).

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (السجدة: ٧).

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ..﴾ (الأنعام: ٦٠).

فعلم الله تعالى يشمل أمورا يشهدها الإنسان وأمورا تغيب عن حواسه، وكلها حقائق يقوم على وجودها الدليل العملي والعقلي.

كتب القسيس "ويري" في تفسيره لهذه الآية أن المسلمين إذا كانوا قد آمنوا بأسرار كتابهم.. فلماذا إذن ينكرون أسرار الكتب السابقة مثل الكفارة والتثليث؟ لكن من البيّن أن وسوسته هذه ناشئة عن جهله بمعنى قوله تعالى ﴿يؤمنون بالغيب﴾. فالقرآن لا يأمر بالتمسك بشيء لا يدعمه دليل، بل هو يندد بما في الأديان الأخرى من معتقدات لا تستند إلى دليل، ويشهد أن أتباع محمد ﷺ لا يعتمدون في إيمانهم إلا على البرهان.

ولم يكن سببُ إنكار المسلمين أسرارَ الكتب الأخرى، كالكفارة والتثليث، أنها سرّ، كما يزعم القسيس (ويري)، بل لأنها أمور لا ينهض عليها دليل، بل هي مخالفة للعقل. ولو كان ثمة إثبات عقلي أو نقلي لها لما أنكرها المسلمون.

والمعنى الصحيح للغيب، كما أسلفنا، هو ما خرج عن نطاق الحس الظاهري، ويحتاج إدراكه إلى الأدلة العقلية والتجريبية. وفي حياة الإنسان الكثير من الأشياء التي لا يحسها بالحواس الظاهرة مثل:

الذاكرة الإنسانية، الحياء، الجرأة، الحب، الكراهية، العقل، الفكر.. فهل من المعقول أن ننكر وجودها لأنها لا تُحس. وهناك مبادئ أخلاقية معروفة: كالعفو الذي يزيل الغضب، وحين المعاملة التي تؤلف بين القلوب.. يعترف بها العالم أجمع، ولكنها أمور غير ملموسة. الأم تتفانى في سبيل وليدها وهي لا تعرف فيما إذا كانت هذه التضحية ستأتيها بالمسرة والخير أم تسفر عن الألم والشقاء. والمعلم الذي يُدرّس الطلاب لا يعرف ما إذا كان جهده سيؤدي إلى نتائج جيدة أم إلى فشل ذريع، ولكنه يواصل عمله ولا يتوقف عنه. والدول تنفق الملايين على مشروعات طويلة الأمد، ولا تدري هل تؤدي إلى نجاح أم تلحقها خسارة فادحة، ولكنها تستمر في محاولتها معتمدة على أمل مقبل أو تجربة سابقة. والجنود يدخلون الحرب وهم لا يعرفون عاقبتها، ومع ذلك يضحّون بحياتهم دفاعا عن أرض الوطن. أليست هذه الأمور كلها دليلا واضحا على الإيمان بالغيب؟

فالإيمان بالغيب يعني الإيمان بالحقائق الروحية التي لا تدرك بالحس الظاهري، ولكنها تحتاج إلى وسائل أخرى. فوجود الله تعالى لا يقع تحت إدراك الحواس، ولكنه محقق بالأدلة الأخرى.. وهي أدلة لا تقل وثوقا عن الإدراك بالحس الخارجي، بل هي أوثق منه وأقوى.. منها ما يتلقاه المؤمنون من كلام الله ويسمعونه، ومنها الأنباء الغيبية التي يروها تتحقق بكل وضوح، ومنها قواه سبحانه وتعالى الجبارة العظيمة التي يجدونها في نفوسهم وفي سائر الكون. إن أدلة وجود الله تعالى أسمى من أدلة الحواس.

والإيمان بالملائكة أيضًا من الإيمان بالغيب. فهي لا تُرى بالبصر الظاهري، ولكن لها وجود متحقق بشواهد قاطعة. والحياة الآخرة، وصدق الأنبياء والكتب.. كل ذلك لم يتركه القرآن بلا دليل.. بل يُثبته بأدلة قوية سنعرضها في مواضعها من السياق القرآني بإذن الله تعالى.

ومن الإيمان بالغيب أيضًا أن المؤمنين لا يكتفون بالأعمال ذات النتائج العاجلة.. شأن التاجر الذي لا يتعامل إلا نقدا، ولكنهم يزاولون حياة أخلاقية الطابع. فهم يؤمنون بقوة الأخلاق وثمراتها الطيبة وإنْ تأخر عائدها. إنهم لا يتصرفون بالعقلية التجارية الفورية، وإنما يقومون بتضحيات تعود على قومهم وعلى سائر الكون بالخير العميم. ومن أمثلة هذا الإيمان ما يقوم به الجندي الذي يجاهد للمحافظة على أمن وطنه.. فهو يقتحم الأخطار لهدف نبيل، ولا يدري ما إذا كانت ستكتب له الحياة لينعم بالأمن أم يموت في المعركة.. ولكنه، لإيمانه بالغيب، يضع البذرة وهو واثق من أن الثمرة مباركة. فإما أن يعيش كريما في وطن كريم، وإما أن يتشرف بأداء واجبه ويأمل في جزاء الآخرة.

والواقع أن المنجزات العظمى والأعمال الرائعة لا تتأتى إلا بالإيمان بالغيب. فالجهود التعليمية، وأعمال البر، ومساعدة الفقراء، والتضحيات لأجل بناء الوطن.. كلها أنواع مختلفة من الإيمان بالغيب.. ولو لم يؤمن الإنسان بالنتائج المقبلة لأعماله ما استطاع أن يُقدِم عليها ويتجشم عناءها. فوصفُ القرآن

للمتقين بأنهم ﴿يؤمنون بالغيب﴾ يشير إلى أن المتقي مع إيمانه بالمهمات الدينية.. فانه يتمتع بجرأة عظيمة لتقديم التضحيات الأخلاقية، ويترفع عن العقلية التجارية، ولا يتشبث بالثمرات العاجلة.. بل يُقْدم على العمل الشاق إذا عرف أنه يعود بالمصلحة العامة والخير الشامل، ولا يهتم بما إذا كان سيذوق الثمار بنفسه، ولا يتردد إذا تطلب العمل جهدا كبيرا.

ومن رزقه الله البعد عن التعصب، وأوتي التفكر في حقائق الإيمان القرآنية بعقل نزيه.. لا يجد مندوحة عن الإقرار بعظمة هذا المضمون.. والاعتراف بأن القرآن يرسي للتقدم والرقي العالمي أساسا يقوم على التضحية.. وهي العنصر الحيوي في بناء التقدم. إن الإيمان بالغيب هو الذي جعل أصحاب رسول الله ﷺ يقومون بالتضحيات الجسيمة التي غيرت وجه الجزيرة العربية، وحولت مجرى التاريخ العالمي. ولولا الإيمان بالغيب ما قاموا بتلك الأعمال الخالدة.

وإذا كانت المراتب العالية للإيمان بالغيب تقوم على الإدراك العقلي والخبرة الذاتية، فان الإيمان بالغيب لا يشترط هذا المستوى السامي، وبوسع الإنسان العادي أن يؤمن بالغيب، مكتفيا بالأدلة العقلية التي ترشده إلى الإيمان بالله وملائكته والبعث بعد الموت.. أما التمتع بالشهود والعيان فهي مرتبة لاحقة. والمتقي الذي يتفكر في الأدلة والشواهد التي تدله على الإيمانيات.. هو في نظر القرآن في طريق الهدى، صحيح الإيمان، ولا يكلف إلا بقدر طاقته. وهذه الدرجة من الإيمان بالغيب تكفي الإنسان للنجاة. فإذا ما اجتهد وتقدم تيسرت له الدرجات العليا من الإيمان بالغيب.. الذي يقوم على مشاهدة الأمور الغيبية على حقيقتها، مصداقا لقول النبي ﷺ.. "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (مسلم، كتاب الإيمان). وهو حديث يتضمن درجتي الإيمان كلتيهما.. وهكذا يقدم لنا القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ أروع التعليم وأكمله.. شاملا جميع مراتب التقدم.. لينال المؤمن حسب موهبته وكفاءته ما يوفي حاجته، ويفوز بالفلاح حسب درجته من الإيمان.. ولا ريب أن مثل هذه التعاليم جديرة بأن تكون من الله سبحانه وتعالى.

ومن معاني الإيمان بالغيب أيضًا أن سلوك المؤمن يتسم بالتقوى وهو غائب عن الناس. فالمتقي يراعي تعاليم دينه وآداب عقيدته أمام الناس، ويستمسك بها وهو بعيد عن عيونهم.. فهو لا يتظاهر بالإيمان أمام قومه، وينسى إيمانه في غيبته عنهم. والقرآن يشيد بالمؤمن بالغيب فيقول: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ (الأنبياء:٥٠). ويقول أيضًا: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (الحديد:٢٦). وكذلك يقول بلسان يوسف: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ (يوسف:٥٣). فالمؤمن يراقب الله تعالى وهو في خلوته، ويحافظ على إيمانه وهو في ستره.

وينبه الله هنا أولئك الذين ينتابهم الحماس الإيماني في الاجتماعات العامة وعند سماع الخطب والمحاضرات، بينما يهدأ حماسهم ويتطرق الضعف إلى إيمانهم بمجرد أن يعودوا إلى أنفسهم. والحق أن مثل هذا الإيمان السطحي تقليد على غير هدى.. إنهم يتحمسون مع المتحمسين.. من غير أن يكون لهم دافع شخصي وميل قلبي إلى التقدم. هذا الإيمان ليس بشيء.. فقد عرض به القرآن في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة: ١٥).

فعلى المؤمن الصادق في إيمانه أن يؤمن بالغيب. فإذا غادر بلده أو ابتعد عن قومه ووطنه الإسلامي ليدرس أو يعمل في بلاد الغرب وغيرها لا ينسى نفسه، بل يتفقد إيمانه حتى لا يفتر أو يضعف أو يضيع.. بل يحفظ إيمانه في غيبته عن المجتمع الإسلامي، وإلا كان من ذوي الإيمان السطحي.. المقلد لبيئته من دون معرفة أو يقين. وإيمان كهذا لا ثمرة له في تقوى أو تقدم نحو الله تعالى.

ومجمل القول أن الله عز وجل وعد بقوله ﴿يؤمنون بالغيب﴾ أن القرآن يسمو بالمتقين المتصفين بالصفات التالية إلى الدرجات العلى من القرب:

أولا: الذين يؤمنون بالعقائد الدينية المتعلقة بالعالم الروحاني بعد انكشاف صدقها عن طريق الأدلة والبراهين إيمانا كاملا.. وإن لم يصلوا بعْدُ إلى مقام تغنيهم فيه التجربة الشخصية عن مجرد الدليل العقلي في توطيد إيمانهم.

ثانيا: والذين يخلِّصون إيمانهم من النفاق، وتكون قلوبهم وألسنتهم وأعمالهم في توافق تام.

ثالثا: والذين يكون إيمانهم ذاتيا وليس مستمدا من المحيط.. بأن يتظاهروا بين المؤمنين بالإيمان وبين الكفار بالكفر، وإنما لا يضطرب إيمانهم ولا يفتر عملهم مهما كان موقف المجتمع أو القوم منهم.

رابعا: والذين يمتازون بإيمانهم بالحقائق التي لا تدرك بالحس الظاهري، لكنها معلومة بأدلة أخرى، ويبلغون به إلى الكمال بتجارب شخصية.

خامسا: الذين يتسامون عن التعامل بعقلية تجارية، ويؤمنون بأهداف أخلاقية، ويتمسكون بغايات دينية، ويطمئنون إلى نتائج التضحيات وإن بدت غير مقبولة ببادئ النظر، لكنها عنصر حيوي في كيان التقدم القومي والديني، ولا يزالون يضحون بالمصالح الشخصية في سبيل المصلحة القومية.

والمتقون الذين يتمتعون بواحدة أو أكثر من هذه الصفات، هم الذين يستحقون ما وعد به القرآن أتباعه من هدى ويُعطَوْنه حسب استحقاقهم.

قوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾. إقامة الصلاة تعني المثابرة عليها بلا انقطاع. فالقيام على الأمر هو المداومة عليه والتمسك به. فالذين عناهم القرآن بقوله ﴿يقيمون الصلاة﴾ هم الذين يستمرون في الصلاة لا يتركونها ولا مرة واحدة. والصلاة التي يتخللها انقطاع أو إهمال لا يعتبرها

الإسلام عبادة، لأن الصلاة ليست من الأعمال المؤقتة، بل هي لا تكتمل إلا إذا تواصلت.. مبتدئة من أول صلاة بعد البلوغ أو التوبة.. إلى آخر صلاة قبل الموت بلا انقطاع. والذين يدَعون الصلاة تفلت حينا بعد حين يضيعون صلاتهم، لأن الصلاة لقاء الله.. ومن يتهرب من هذا اللقاء يكذب نفسه بنفسه في ادعاء حب الله تعالى.

وإقامة الصلاة تعني أيضًا أداءها.. فالمتقون يراعون جميع الشروط التي لا بد منها للمحافظة على مظهرها، ويتقيدون بالمبادئ التي بيَّنَتْها السنة النبوية كصحة الوضوء، والمواقيت، وتمام القيام والركوع والسجود، والخشوع في التلاوة القرآنية، والتسابيح والأدعية المسنونة حسب مواقعها.

والشريعة وان أكدت على الالتزام بالشروط الظاهرية للصلاة، إلا أنها لا تبيح ترك الصلاة لنقص شرط من شروطها مثل عدم تيسر اللباس الطاهر وما إلى ذلك.. بل إن أداء الصلاة مقدم على كل الشروط. وإذن فلا يجوز أن تترك بعض النساء الصلاة من أجل الاشتباه في الطهارة بسبب ملازمة الأطفال، كما لا يجوز أن يعتذر بعض المسافرين عن الصلاة لعدم الاطمئنان إلى الطهارة الكاملة أثناء السفر. فهذه كلها وساوس شيطانية، لأن الله تعالى يقول: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٧).

والشروط واجبة، وتركها معصية عند استطاعة تحقيقها، لكن ترك الصلاة لأجل تحقّق الشروط معصية بلا شك، ومن يلجأ إلى هذه الأعذار يُعَدّ تاركا للصلاة. فعلى المؤمنين أن ينتبهوا إلى هذا المتزلق.

وإقامة الصلاة تعني جعلها قائمة ومحاولة أدائها بجميع شروطها. وفي هذا إشارة إلى المشاكل التي تحول دون أداء الصلاة بصورة كاملة والتي يتعرض لها بعض المصلين وكثير من المبتدئين.

وهذه المشاكل تنتج عن العوامل الظاهرية والباطنية التي تلهي الإنسان عن صلاته وتجعله نهبا للوساوس.

ومن عادة الإنسان أن ينتقل بتفكيره من أمر إلى أمر، والفكر الإنساني دائم التردد هنا وهناك، وقد يبتعد عما بدأ به، ويتيه في الفوضى المتواصلة من الوساوس، إلا إذا تعلق بحادث مهم أو حماس زائد أو عاطفة حب أو مثل ذلك من الأمور التي تؤدي إلى الاستقرار الفكري المؤقت. وإذا لم تكن للمرء سيطرة على أفكاره شغلته الأصوات الخارجية والحركات الجهرية والخافتة، وخشونة مكان الصلاة ونعومته، وطيب الرائحة وخبثها.. وما إلى ذلك. فقوله ﴿يقيمون الصلاة﴾ تشير إلى هذه المشكلة، وتشجع المؤمنين على مواصلة صلاتهم.. فلا يترعجوا من هذه المشاكل، لأن الله يفتح لكل إنسان طريق التقدم حسب مستواه من الإيمان. ويجب على من يتعرض لمثل هذه المشاكل أن لا ييأس ولا يظن أن صلاته ضائعة.. فالله تعالى يطالب عباده بالتضحية حسب مقدرتهم. والمصلون الذين تتشتت أفكارهم أثناء

الصلاة.. إذا استمروا وبذلوا جهدهم لأجل الاستغراق والاستقرار.. فصلاتهم مقبولة عند الله ولن يضيع أجرهم، لأنهم حاولوا وجاهدوا في إقامة الصلاة، وهم أيضًا من المتقين.

كما أن عبارة ﴿يقيمون الصلاة﴾ تشير إلى المتقين الذين يحضون الناس على الصلاة، لأن الحضّ على الصلاة وترغيب الناس فيها هو أيضًا من إقامة للصلاة. فالمتقون المتصفون بهذه الصفة لا يكتفون بإقامة الصلاة بأنفسهم، بل يستمرون في حث الناس عليها.. تنشيطا للكسالى وتذكيرا للساهين. والذين يتطوعون لإيقاظ الناس لصلاة التهجد في شهر رمضان هم أيضًا مِن الذين يقيمون الصلاة.

وإقامة الصلاة أيضًا هي الإقامة المعروفة التي يُعلن بها بدء الصلاة، وهي إشارة إلى صلاة الجماعة. ولكن المسلمين عامة، وللأسف الشديد، قد أغفلوا ضرورة صلاة الجماعة. وهذا من أعظم ما دفعهم إلى الانشقاق والتفرقة. مع أن الله تعالى قد جعل لهذه العبادة منافع فردية وبركات اجتماعية. فقوله: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ يعني أن المتقين يحافظون على صلاة الجماعة، ويدعون الناس إليها. وليكن معلوما أنه أينما ورد في القرآن الأمر بالصلاة كان بصيغة: ﴿أقيموا الصلاة﴾، و لم يكن بصيغة "صَلُّوا".. وهذا دلالة على أن الأصل في الصلاة أن تكون جماعة، وأنها أهم أركان الإسلام. فالذي لا يصلي مع الجماعة بدون عذر من مرض أو بعد عن القرية أو سهو أو عدم وجود مصلٍّ آخر.. فإنه وان أدى صلاته في بيته فلا تعتبر صلاته صلاة، بل يعتبر تاركا لها. أما الصلاة الفردية فهي عند الاضطرار، كمثل الذي يصلي قاعدا إذا لم يستطع القيام. ومن يمكنه أداء الصلاة في جماعة، ثم يتركها فذنبه مثل ذنب الذي يصلي قاعدا وهو قادر على القيام. فالذين يتهاونون في صلاة الجماعة جدير بهم أن ينتبهوا لهذا، لان التهاون يحرمهم من أجر عظيم.

ومن معاني ﴿يقيمون الصلاة﴾ أيضًا أنهم يؤدونها بنشاط وانتباه لأن التكاسل والتغافل يؤديان إلى تشتت الأفكار والحرمان من لُبّ الصلاة ومن أجل ذلك أمر الرسول ﷺ بالوضوء قبل الصلاة، ونهى عن الاتكاء على شيء فيها. (صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب كراهة الاختصار في الصلاة). ونهى عن وضع المرفق على الأرض عند السجود، وأمر بإقامة الصُلْب في الركوع، وأمر بإقامة الرجلين في القيام والركوع، وأمر بالسجود المعتمد على سبعة أعضاء (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في الاعتدال في السجود، وباب ما جاء فيمن لا يقيم صلبه، وباب ما جاء في السجود على سبعة أعضاء). وأمر بأبعاد البطن والظهر عن الرجلين (النسائي، كتاب افتتاح الصلاة، باب صفة السجود والتجافي في السجود والاعتدال في السجود). وأمر بنصب القدم اليمنى أثناء التشهد بحيث تكون أصابعها متجهة نحو القبلة (الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء كيف الجلوس في التشهد).

هذه المعاني الستة التي ذكرناها لقوله: ﴿يقيمون الصلاة﴾ استنادًا إلى اللغة يصدّقها القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، وإليك بيانه:

١- عن المداومة على الصلاة يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج:٢٤).

٢- وعن مراعاة الشروط الظاهرية والمعنوية لها يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون:٣).

٣- وعن المحافظة على أدائها بلا إهمال ولا نسيان يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المؤمنون:١٠).

٤- وعن الدعوة إلى الصلاة يقول تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه:١٣٣).

٥- وعن صلاة الجماعة يقول تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٣).

٦- وعن النشاط والانتباه في الصلاة يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ *﴾ (الماعون: ٦، ٧)، ويقول: ﴿وَلا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى﴾ (التوبة:٥٤)، ويقول: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف:٣٢). والزينة تشمل ما يلزم الإنسان من وضوء وما إلى ذلك مما يجدد النشاط. ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء:٤٤).. فإذا كانت الأفكار مبلبلة تُرجَأ الصلاة إلى أن يكون المصلي واعيًا لما يقول، لأنه في حالة الاضطراب لا يدرك حقيقة كلمات الصلاة، والصلاة في مثل هذه الظروف لا تحقق النفع المطلوب. ولكن لا يعني ذلك أن يتخذ الإنسان من اضطرابه عذرا يبعده عن الصلاة، وإنما المراد أن يحاول المرء جهده للابتعاد عن ما يسبب له الاضطراب الفكري ويوطن نفسه على النشاط والاستعداد للصلاة. وتحقيقا لهذا الهدف شرع الإسلام أن يؤذن للصلاة كي يتفرغ المسلمون من أعمالهم ويستعدوا للصلاة، وشَرَع الوضوءَ تنشيطا للبدن واستحضارا للنية، وحث على صلاة النفل في البيت قبل الذهاب إلى المسجد، تسكينا للاضطراب، وتمهيدا للاجتماع مع المصلين بالمسجد، ووصّى بذكر الله حتى يخرج الإمام للصلاة، وذلك لحصر الفكر في الصلاة ونبذ المشاغل الدنيوية، كل هذه الأمور تساعد على نفض الكسل والاضطراب، وتشتت الفكر في عدة أمور، لأن المسلم إذا سمع الآذان، وانقطع عن جميع أشغاله الدنيوية، واندفع فكره نحو العبادة، ثم ذهب إلى المسجد وصلاة الجماعة والذكر.. كان في ذلك استقرار لذهنه نحو الصلاة، وتوفرت له جميع الوسائل التي تساعده على تركيز فكره. ومن أجل هذا الغرض العظيم أمر النبي ﷺ الحاقن أن يقضي حاجته من بول أو غيره

قبل الصلاة. (أبو داود، كتاب الطهارة، باب أي يصلي الرجل وهو حاقن). وأمر بالأكل إذا وضع أمام المصلي الجائع حتى لا يشغله أو يبلبل فكره، فقال: إذا وضع العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء. (البخاري، كتاب الأذان، باب إذا حضر الطعام أقيمت الصلاة). وقد خص العشاء بالذكر لأنه يوافق وقت صلاة العشاء، فلا يؤخر الطعام، بل يتناوله المصلي قبل موعد النوم بوقت كاف.. كي لا تختل معدته، ويضطرب نومه.. كما يحدث عادة لمن يأكل قبل النوم مباشرة. والنوم الهادئ يتيح للمؤمن أن يقوم لصلاة التهجد نشيطا. ومخالفة هذا التوجيه المبارك يحول بين المسلم وصلاة الليل، فيضيع منه الخير الكثير.

عرفنا لكلمة ﴿الصلاة﴾ معاني عديدة في اللغة، وقد استخدم القرآن العديد من هذه المعاني، بالإضافة إلى المعنى الاصطلاحي الدال على العبادة العامة المعروفة بصلاة المسلمين. يأمرنا القرآن بالصلاة على النبي ﷺ، ومعناها طلب الرحمة والبركة والتعظيم.. والمقصود بها أن يدعو المسلمون لأجل رفعة درجاته، إظهارا لاحترامهم وتعظيمهم له ﷺ.. فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٧).

وصلاة الله تعالى على الرسول تعني حسن الثناء، وصلاة الملائكة تعني الدعاء والاستغفار، وقد وردت الصلاة بمعنى الاستغفار في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣). وبمعنى الدعاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ (التوبة: ٩٩).

والصلاة تلك العبادة الإسلامية المعروفة، تتضمن عدة أمور أخرى؛ منها أنها دعاء يتحقق به هدف الدين، وأنها استغفار وطلب للرحمة والبركة. وقد كشف القرآن عن الغرض الرئيس من الصلاة في قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٦). فقراءة القرآن وصلاة الجماعة تُبعدان المرء عن المساوئ الذاتية، كما أنها تردعه عن المساوئ الاجتماعية. فالصلاة لم تُفرض لتكون طقوسا وتقاليد، ولكنها عبادة تتكون من العناصر التي يترتب على أدائها الانتهاء عن المنكرات وتطهير الباطن. وأسلوب الآية يشير إلى طبيعة الصلاة من أنها تنهى المصلي عن المنكرات، فمن يداوم على الصلاة من دون أن يشعر بالنفور من السيئات، فلا شك في أن صلاته ناقصة.

كما أن وصف المتقين بأنهم ﴿يقيمون الصلاة﴾ يدل على أنهم لا يصلون صلاة شكلية أو لمجرد التقليد، ولكنهم يحاولون جهدهم إقامتها بصورة صحيحة.. لتكون دعامة ثابتة من دعائم البناء الروحاني. وإذا كانت الدعائم لا تحمل البناء إلا ما دامت ثابتة.. كذلك الصلاة لا تدعم الكيان الروحي

للمؤمن إلا ما دامت كاملة قائمة على أساسها. فينبغي على المؤمن ألا يكتفي بمجرد أداء الصلاة، بل عليه أن يجعلها قائمة كي تكون عمادا لتقواه.

الصلاة الإسلامية

والصلاة الإسلامية تتميز بكيفية خاصة، فقد فرض على المسلم أن يتوضأ لها، أو يتمم عند الضرورة فيقوم مقام الوضوء. (المائدة: ٦، والبخاري، كتاب الوضوء، والنسائي، كتاب الوضوء). ومن مقاصد الوضوء توجيه فكر المصلي نحو العبادة، وهو يفيد في النظافة الظاهرة، لأن الأعضاء التي تُغسل هي التي تتعرض عادة للغبار والأوساخ. والوضوء، كما تشهد بذلك التجربة، يخفف عن الأعضاء التي تغسل ما أصابها من إجهاد، ويزيل ما بها من توتر، ويعيد إليها نشاطها بعد خمول، ويخفف حرارتها، ويهدئ اضطرابها. وكل ذلك تجديد للحيوية، وجمع لشتات الفكر، وتركيز للعقل حول الصلاة.. فيتحقق بذلك للمصلي الطمأنينة والانشراح.

الحكمة في هيئات الصلاة:

وهيئة الصلاة وأوضاعها من ركوع وسجود ليست من قبيل الطقوس الغامضة التي وضعت كيفما اتفق، بل الحق أنها أريدت لمغزى عميق وحكمة بالغة لا بد من توفرها لكمال الصلاة. إن التكوين البشري يقتضي تفاعل الروح والجسد، فيتأثر كل منهما بالآخر ويؤثر فيه. فمن تباكى تدمع عيناه، ومن يتضاحك تنفرج كآبته، والمحزون يظهر أثر حزنه على وجهه وعينه، والمرعوب ترتبك أمعاؤه ويسيل عرَقه. فمشاعر الإنسان تؤثر في بدنه، وحالات البدن تنعكس على المشاعر.

وقد جرت الشعوب جميعها، المتمدن منها والبدائي، في القديم والحديث، على التعبير الجسدي عن مشاعرها من حب وكراهية واحترام وطاعة وما إلى ذلك. وقديما كان الفرس يقفون رابطين أيديهم على صدورهم أمام ملوكهم الذين كانوا يعتقدون بمظاهر الألوهية في الأرض، وكانوا يكتفون أحيانا بمجرد الوقوف. والأمم الغربية تعُدّ القعود على الركبة منتهى الاحترام والتذلل. والهنود يتخذون الركوع وسيلة للتأدب والخضوع، كما أنهم يسجدون لعظمائهم وآلهتهم.

و بما أنّ الإسلام للأمم كافة.. فلذلك جمع في عبادته كلّ تلك الأوضاع المتفرقة، كي يجد فيها كلّ قوم طريقه الخاص الذي يؤدي به إلى الخشية التي تلزم العبادة، لأنّهم (أولا) سيتأثرون بهذه الهيئة الخاصة بسبب عادتهم القومية، و(ثانيا) سيستفيدون بهذا الأوضاع المختلفة حسب حالتهم القلبيّة، لأنّ التغيير الذي يحصل في قلب الإنسان قد يجعله يركع من شدة الحب، أو مبالغة في التأدب، وقد يقعد على ركبته لنفس السبب، وقد يمثُل مثولا، وقد يخر ساجدًا. فمهما يحصل في قلبه من التغيّر الروحي يجد له الوضع المناسب الذي يساعده على التحمس والاستفادة من العبادة حق الاستفادة. و(ثالثا) يتأثر الإنسان بهذه

الأوضاع حسب ظروفه الجسمانية من المرض وغيره. مثلا يعاني المزكوم أثناء السجود، ولكن القيام والقعود يساعدانه على التحمس للدعاء، لأن هاتين الهيئتين تتفقان وحالة مرضه. والذي يشكو ضعفا في رجله يطمئن في السجود ويستعيد حماسه.

وجملة القول أنّ الإسلام جعل من العبادة عملا اجتماعيا، واضطلع بمسؤولية إصلاح الشعوب كلها، ولذلك جمع في هذه العبادة كل الأوضاع التي مارستها الشعوب في إظهار عاطفة التأدّب والحب التي تنطوي عليها قلوبهم. وهكذا بلغت الصلاة من الشمول والكمال حدًّا لم تبلغه صلاة أي أمّة أخرى.

ونظرًا لما لصلاة الفرد من مزية فريدة أمر الإسلام بأدائها في جماعة، لأنّ اجتماع الناس، على اختلاف استعدادهم، يجعل قلوبهم تتفاعل مع بعضها، فيتأثر ضعيف الإيمان بقوي الإيمان ويستمد منه القوة. وبما أنّ الإنسان قد يشعر بميل نحو العبادة منفردًا فلذلك أمر الله بالنوافل كصلاة التهجّد، إلى جانب الفروض أيضًا، وبذلك أتاح له الفرصة لتحقيق هذه الرغبة الخاصة.

فخلاصة القول أنّ الصلاة الإسلامية جامعة لجميع الطرق المعروفة لدى مختلف الأمم لإيجاد حالة خاصة ضرورية للعبادة، وفيها قوة عظيمة لإصلاح الحالة القلبية لكل فرد وشعب، ولإيجاد حماس صادق للعبادة فيهم. والتزام مختلف الأوضاع في الصلاة لا يقلل من عظمتها، وإنّما تكتمل بها، وتتفوق بها على العبادات الأخرى.

وعلاوة على ما تقدّم من أثر للمظاهر والأوضاع، فإنّ الصلاة تتضمّن التسبيح والتحميد والتعظيم، وهي معان سامية تذيب قسوة القلوب، وتضم أدعية تعلو بالتفكير الإنساني، وتزيد أهدافه سموا ورفعة، وتثير عواطفه للتقوى والعمل الصالح، وتُلهب في قلبه جذوة الحب الإلهي. وهذه الأدعية هي العنصر الروحاني للصلاة.

والفرق بين الصلاة الإسلامية وبين عبادة أيّة أمّة أخرى، عند المقارنة، كالفرق بين الشمس وسراج الزيت. ولقد عزل الإسلام صلاته عن جميع مظاهر اللهو.. كالغناء والموسيقى والرقص.. التي نراها في العبادات الاجتماعية للأمم الأخرى، ولكنّه زيّنها بالبساطة والحب الذي يقّدم به المؤمنون تحيّات إخلاصهم للحضرة الإلهية ويلتمسون حبّه عزّ وجلّ.

وتُؤدّى الصلاة الإسلامية خمس مرات في اليوم، نهاره وليله وليس مرة واحدة في الأسبوع.. كما هو الحال عند بعض الديانات. ومع أنّ هذا العصر تكتنفه الاتجاهات اللادينية، وتتمكن منه المادّيّة الطاغية.. فإنّ صلاة المسلمين في اليوم الواحد تزيد عن صلاة غيرهم في أسبوع. وهذا خير شاهد على ما في الصلاة من قوة روحانية جاذبة.

ويعترض بعض الناس: ما هي مصلحة الله في أمره الناس بالعباد، وهل هو بحاجة إلى عبادتنا، في حين أنّ التعظيم والتكريم لا يسرّ إلا الجاهل من الناس؟

والجواب على هذا الزعم أنّ العبادة لا تهدف إلى إعلاء شأن الله تعالى، بل هي ترمي إلى إيجاد الصلة بين العبد وربّه، حتى يتمكن من استمداد النور الإلهي. ومما لا يمكن إنكاره أنّ مجرّد التفكير لا يُولّد في الإنسان حماسا لمحو ذاته في ذات الله تعالى، بل يحصل هذا عن طريق حب كامل شديد مندفع. وهذا الحب، لا يحصل إلا بانكشاف تام لِنعم المنعم الكامل. والصلاة تحقق هذا الغرض لأنّها تقدّم الوسائل الكاشفة لشأن الله الحقيقي عزّ وجلّ.

وإنْ قيل: إنّ الإنسان إذا أراد الاتصال بالله لأمكنه ذلك في أي وقت شاء، فإذن لماذا حُدّدت المواقيت الخمسة للصلاة؟

هذا الاعتراض ناشئ عن قلّة تدبّر، لأنّ الطبيعة الإنسانية إذا لم توجّه إلى أهدافها باستمرار أخلدت إلى الكسل. فالله تعالى، نظرا إلى تفاوت المصلين في القوة الإيمانية، أمرهم بالصلاة الجماعية.. كي يتمكن الضعفاء مع الأقوياء من الفرص التي تجلو قلوبهم وتطهّر نفوسهم.. وهذا بتغلغل العوامل الخفية التي تتسرب إليهم من أقوياء الإيمان.

ويعترض البعض قائلين: لماذا أُمرنا بأداء الصلاة خمس مرات يوميًّا؟ فإنّ توفير هذا القدر من الوقت صعبٌ جدًّا بسبب كثرة الأشغال في هذه الأيّام.

والرد على هذا الزعم أنّ الصلاة إذا كان هدفها إتاحة الفرص لانعكاس الصفات الإلهية بإذكاء الحب الإلهي.. فمن البديهي أنّ الحاجة إلى الصلاة تشتد كلّما كثرت الشواغل عنها، لأنّه من كثرة الملهيات وجب التذكير. فهذا العصر الذي كثرت فيه الأعمال وتنوعت فيه هو أحوج ما يكون إلى الصلاة. ولو كانت الصلاة مجرد مظهر للعقيدة لأقمنا لهذا الزعم وزنا، ولكنّها ليست كذلك، بل إنّها تهدف إلى أن تستعد النفس الإنسانية استعدادا يُمكّن الإنسانَ من التحليق السريع عن العالم المادي إلى العالم الروحي، وأن لا يتخبّط تفكيره في العلائق المادية فقط، بل يقدم على تحصيل المثل العليا، كما يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٦).. أي أنّ الصلاة ليست مجرّد اعتراف بالعبودية، بل هي صقل القلوب ووقايتها من السيئات والمنكرات، لِيصير صاحبها نافعا لبني الإنسان، وعنصرًا صالحا في المجتمع. فالعمل الذي يتضمن هذه المزايا كلّها تقل أهميته في العصر المادي الصاخب بل تتضاعف.

والحق أن انتشار القلق والاضطراب واعتداء الأمم بعضها على بعض في العصر الحاضر.. كل أولئك ترجع إلى عامل هام خطير.. وهو إهمال الناس العبادة الخالصة لله تعالى، ولو تمسكوا بها لأدى اتصالهم بخالق هذا الكون وربهم الكريم إلى استبدال المحبة والإيثار والتضحية بالتباغض والتنافر.

والصفة العملية الثانية للمتقين الذين يجدون الهدى في القرآن أنهم يكونون كما قالت عنهم الآية ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾. والرزق هو كل عطاء من الله بصفة عامة. وليس الطعام وحده كما يظن بعض الناس. والأصل في الرزق الإمداد بالوسائل حسب الضرورة، والطعام واحد من الضرورات الحيوية للإنسان، وليس هو الأصل في المعنى، ولذلك يخطئ من يفسر الرزق بالطعام وحده.

وصفة ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ لم تحدد الإنفاق كمًّا أو نوعًا أو مادة وليس لنا أن نحدد ما لم يحدده الله. فالمتقون يبذلون في سبيل الله نصيبا من كل ما أعطاهم الله.. علما كان أو عقلا أو شرفا أو مالا. إن كل ما يسد ضرورة فهو نعمة من الله تعالى، وقد أمر الله بإنفاق كل هذه الوسائل. إن مَن يساعد الناس بالمال ويبخل عليهم بجاهه أو من يكسوهم ولكنه يحرمهم المأوى، أو من يخدمهم ولكن يضن عليهم بعلمه.. مثل هذا الإنسان لا يكون من العاملين بهذه الميزة التي تصف بها الآية المتقين المنتفعين بهدي القرآن. الآية تدل على أن المساعدة بالمال وحده جانب من الإنفاق، وليست كل الإنفاق. فمن الإنفاق في سبيل لله تعليمُ الناس وخدمةُ اليتامى والأرامل والمحتاجين والدفاعُ عن الوطن وبذل النفس في سبيله وعلاج المرضى، وكشفُ المخترعات بالعمل ليلا ونهارا للصالح العامة.. وكثير غيرها من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى.

والذين يتدبرون هذه الآية يسعون دائما أن تكون كل طاقة ونعمة لديهم في المنفعة العامة. ولقد أدرك الفقهاء حقيقة الإسلام الكبرى إذ استثنوا من الزكاة ذلك الحلي الذي تستعمله صاحبته أو تعيره للفقيرات من النساء أحيانا. وهذه حقيقة كبرى، لأن الزكاة فرضت لتزكية المال وطهارته. والمال كالماء.. إذا جرى لا يفسده شيء وإذا وقف أَسِن. المال الذي يُصرف وينتقل نفعه من يد إلى يد فهو كماء مبارك يخرج من عين متدفقة فينتفع منه الجميع، ولذلك يشجّع الإسلام على التجارة والزراعة والأعمال التي تعود بالفائدة على العاملين بها وعلى غيرهم، ولكنه يحرّم كتر المال وحجره عن التداول، لأن هذا يحرم الناس من نفعها. وقد شدّد الإسلام في هذا الأمر فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ (التوبة: ٣٤،٣٥)

كما أن الآية تدل على أن المنفق على الفقراء، والمنفق على أولاده وزوجه، والأم التي ترضع وليدها، والابن الذي يعتني بخدمة والديه.. كل هؤلاء وغيرهم منفقون في سبيل الله، بل المنفق على نفسه يعتبر منهم.

وكل من يبخل على نفسه ولا ينال من الطعام ما يضمن صحته فإنه يعصي هذا الأمر، لأن الآية لا تقول "ينفقون على الفقراء" وإنما تركت الإنفاق بلا تعيين، وبذلك شملت إنفاق الإنسان على نفسه وزوجه وأولاده وأصدقائه. وقد أوضح الرسول ﷺ هذا المعنى حيث نصح رجلا كان يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يهتم بزوجته وأولاده، فقال له: "إن لنفسك عليك حقا، ولربك عليك حقا، ولضيفك عليك حقا، وان لأهلك عليك حقا. فأعط كلّ ذي حق حقه". (الترمذي، أبواب الزهد)

ولقد أبطلت هذه الآية جميع أنواع الرهبانية التي يروها من الحسنات.. مثل عدم الاهتمام بالنظافة والطعام وإهمال حقوق ذوي القربى. فالمتقي، عند الإسلام، هو الذي ينفق من كل ما أعطاه الله على نفسه وذويه، وجيرانه وأصدقائه، وعلى الفقراء والأغنياء والمعارف والأجانب، على المواطنين والمسافرين والغرباء، على بني الإنسان بل الحيوانات أيضًا.. لأن الإسلام يأمر بالإنفاق من كل نعمة، ولكل مصلحة ضرورية.. فمن ترهب وقعد عن السعي فقد أعجز نفسه عن الإنفاق وخالف الآية.

وتدل هذه الآية ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ على أن الإنفاق محدود بجزء من الرزق وليس كله. وتقرر آيات أخرى من القرآن أن الإنفاق المفرط الذي يؤدي إلى الفقر محرم كذلك. يقول تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء:٣٠). والمحسور هو من ضاعت قوته وبدا عجزه.. فحُرم من التقدم. وإذا كان الإفراط في إنفاق المال مكروها حتى لا يورث الحسرة فإن الأمر لا يسري على الإنفاق العلمي والفكري. فالمال معرض للنفاد.. أما العلم والفكر فلا ينفدان بالأنفاق. ولكن الاعتدال يكون مطلوبا أيضًا في هذه الحالة، بمعنى تجنب إرهاق النفس إرهاقا يعطل قوى الإنسان ويحول بينه وبين المداومة على التقدم. إن من يجهد نفسه فيمرض ويتوقف عن العطاء يعد مخالفا لهذه الآية.

ويدل قوله تعالى: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ على أن المتقي ينفق في سبيل الله من الحلال، فليس من البر إنفاق مال جاء من حرام. ومن ينفق مالا جمعه من رشوة أو سرقة لا يفعل خيرا، لأنه ينفق من حقوق غيره، وليس من رزق الله له.. والشر لا يلد إلا شرا.

ولما كان معنى الرزق هو العطاء المتواصل حسب الحاجة.. فإن الآية تعني أن الخوف من الإنفاق مخالف للعقل السليم. فكلمة ﴿رزقناهم﴾ تدل على أن الله تعالى لن ينقطع عن العطاء، فلا داعي للخوف. إن الذي ينفق حسب أمر الله تعالى لا يخسر أبدا. بل يربو ماله وتزدهر ثروته، لأن الله لن يقطع

عنه رزقه. أما ازدهار العلم والعقل والجاه بالإنفاق، ونمو القوى باستعمالها فظاهر معروف.. لأن من يفيد الناس بعلمه يزداد علما ومعرفة. وبالمثل فإن المنفق من جاهه يزداد جاهه بين الناس. وكذلك المنفق من ماله تتضاعف ثروته.. لأن نفقته على نفسه تزيده قوة ونشاطا لكسب المال، ونفقته على زوجته وأولاده تزيد عدد الأيدي العاملة له، ونفقته على جيرانه وأصدقائه تزيد عدد مساعديه، ونفقته على الفقراء ترفع مستوى معيشة قومه.. وبكل ذلك تزدهر ثروته بلا شك.

وعلى العموم فإن الإنفاق الصحيح للمال يمنعه من الضياع، بل يضاعفه إضعافا كثيرة، وعلاوة على أن فضل الله ينـــزل على المنفق نزولا روحانيا، فإن السنن الإلهية الكونية تساعد على زيادة المال وبسطه، ولا يتسبب عن الإنفاق نقص أو انقباض، ولا يخالف الإنفاق إلا الجهلاء الذين لا يدرون أنهم بإمساكهم عنه يدفعون بأموالهم نحو الخسارة لا الربح.

وقد تساءل بعضهم: لماذا يجعل الله الناسَ وسيلةً للإنفاق على سائر خلقه، ولا يعطي كل واحد نصيبه مباشرة؟ هذا التساؤل ناشئ عن قلة التدبر، فالواقع أن الناس جميعا ينفقون بعضهم على بعض، وليس الإنفاق وقفًا على الأغنياء وحدهم، كما قد يبدو في الظاهر. إن الغني يثري من التجارة أو الزراعة أو الصناعة بتعاون الأيدي العاملة والمتعاملين معه من الفقراء. كما أنهم يحافظون على ماله ويكفلون له الأمن والاستقرار، ولولا أنهم معه وحوله ما أمكن له أن يجمع مالا، أو يحميه وحده من الضياع والهلاك بأيدي السارقين وقطاع الطرق. فالفقير يعين الغنيَّ قبل أن يعين الغنيُّ الفقيرَ. من هذا يتبين كيف أن الله عز وجل قدر نظاما ماليا رائعا، وجعل لكل إنسان سهما في مال غيره كي تعم المواساة وتتقوى وشائج المحبة والتعارف، ويزدهر العلم والتمدن والتكافل الاجتماعي بين بني البشر، وقد فصل القرآن هذا النظام المالي كما يلي:

١- الزكاة: وهي فريضة من فرائض الإسلام، بها شرع الله تعالى للمجتمع البشري كله حقا مفروضا في المال، لأن المال مكتسب بجهود تعاونية من قبل سائر البشر. وهذا الحق لا يسقط بأداء الحقوق الفردية.. فمثلا إذا كان لرجل منجم يستخرج منه معدنا، فإنه يدفع أجور العمال نظير عملهم، ولكن القرآن يشرع بأن لهؤلاء العمال نصيبا في ملكية ذلك المعدن.. لأن خزائن الأرض كلها مخلوقة لأجل جميع نوع الإنسان، ولا تختص بشخص دون آخر، وكذلك لسائر الناس نصيب في هذا المعدن، ولذلك فرض الإسلام على مالك هذا المنجم أن يدفع للحكومة قسما من ماله كي تنفق منه على كل رعاياها بما فيهم عمال منجمه.

والفلاح الذي يرتزق من أرض يزرعها.. ليس المالك الوحيد لهذه الأرض وما يؤثر فيها من شمس وهواء وماء لإنتاج ثمرات الأرض.. ولكنها شرك بينه وبين سائر البشر، ولذلك عليه أن يؤدي نصيبا من محصول الأرض لصالح الرعية كلها.

والتاجر لا يمكن له أن يجمع ماله ويربح إلا في بيئة آمنة. وبين قوم يتعاونون معه، ولذلك فرض الإسلام على هؤلاء التجار أن يؤدوا الزكاة. ومن فاض معه مال وادخره، فلا يجوز له أن يحرم الناس من منافعه، ولذلك عليه أن يدفع زكاة ماله كل عام، لأن الادخار المستمر يحرم غيره من حقه في المال وقد أمر الله تعالى بالزكاة في قوله

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة:١٠٣). والمراد بالصدقة هنا الزكاة المفروضة تأخذها وتنفقها الحكومة، أو إذا لم تكن الحكومة فالنظام الإسلامي يقوم بجمعها وإنفاقها، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿خُذْ﴾.

٢- الصدقة: وهي تطوع، خاضعة لمقتضى التقوى القلبية.. تُعطى لمن يسألها لسد حاجته، ولمن لا يسألها حياء أو عجزا، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٢٧٥).

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:٢٠).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (البقرة:٢٧٤).

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ... ﴾ (الدهر:٨).

والنذر هو الصدقة التي يَعِد بها الإنسان قائلا: إذا وفقني الله في عمل كذا، أو أزال عني مصيبة كذا.. فسوف أنفق من المال كذا، أو أؤدي عبادة كذا. والفرق بين الصدقة العامة والنذر.. أن الصدقة تنفق قبل زوال المشكلة، أما النذر فيؤدى بعد زوالها.

بعض صلحاء الأمة لم يحبذوا النذر، بل حبذوا الصدقة، لأن النذر نوع من الاشتراط والمساومة مع الله تعالى. فالأفضل أن يتصدق الإنسان أولا، ثم يتوكل على الله. وأنا أيضًا أوافقهم في هذا الرأي، لأن الإمام البخاري روى عن عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: "من نذر أن يطيع الله فليطعْه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصِه". (البخاري، كتاب النذور، باب النذر في الطاعة)

٣-النفقات التي يضطلع بها الإنسان لأجل الأهداف القومية أو الشعبية والتي حثّ عليها القرآن في قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:٤١).

هذا النوع من النفقات ليس بزكاة ولا صدقة. وهو هام جدًّا، بحيث استحق فاعله أجرا عظيما. وأيامنا هذه ليست أيام الجهاد بالسيف، وإنما ينبغي بذل الأموال لنشر الإسلام، أو تزويد المسلمين بتعاليم الإسلام، أو لتوحيد شمل جماعتهم، وما إلى ذلك من أمور لرفع شأن الإسلام في العالم. بهذا يتحقق القسم الأول "وهو الجهاد بالمال" من قوله تعالى: ﴿جاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾ ويتحقق القسم الثاني بالجهاد بالنفس بأن يقف الإنسان بعض وقته لأجل الدعوة إلى الإسلام مضحيا بمصالحه الشخصية، ويسهم في أعمال التربية والتعليم بما فيه المصلحة العامة للمجتمع.

٤- الأموال التي تنفق تعبيرا عن الشكر لله تعالى على نعمه.. كما قال عز وجل: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (الأنعام:١٤٢).

٥- الفدية: ويتضح الغرض منها في قوله تعالى: ﴿وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة:١٩٧). فهي إنفاق ليجبر نقصا في العبادة لا حيلة للمرء فيه.

٦- الكفارة: ويراد بها جبر نقص ناتج عن تقصير بشري، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ (المائدة:٩٠).

والفرق بين الكفارة والفدية هو أن الفدية يؤديها الإنسان حينما يقوم بعمل بإذن الله تاركا عملا آخر أهمَّ منه، أو حينما يرى أنه قصر بعض الشيء في أداء واجب عليه، فيزيل هذا القصور بأداء الصدقة. أما الكفارة فيؤديها الإنسان لارتكاب معصية، أو عند اقترابه منها، ليزيل عنه وبال هذه المعصية، ويعبر عن توبته بالعمل.

جدير بالانتباه أن مفهوم الكفارة في القرآن الكريم هو أن يعبر التائب عن توبته بالعمل، وذلك بإنفاق شيء من المال أو تضحية جسمانية، علاوة على ندامته بالقلب واللسان. ولكن الكفارة المسيحية تعني أن كائنا عظيما ضحى بحياته لأجل الآثمين الذين لم يولدوا بعد. والواضح أنه لا علاقة لهذه الكفارة بالتوبة على الإطلاق، لأن الكفارة المسيحية تضحية مزعومة تمت قبل وجود الإثم والآثمين.

٧- الإنفاق للتعاون في سبيل النهوض بالمستوى الاجتماعي والحضاري.. مثل إنفاق المرء على أهله، وإنفاق الوالد على أولاده. فهذه النفقات أيضًا فرضها القرآن واعتبرها ضرورية، ومن يرفض أداءها كان آثما عند الله، وعلى الحكومة الإسلامية أو النظام الإسلامي إكراهه على أدائها لهم.

٨- حق الخدمة أو الأجر، وهو المكافأة نظير منفعة كما في قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ..﴾ (البقرة:٢٣٤). فالشريعة تحث الوالد على أن يؤدي أجر الرضاعة لمن تُرضع ولده، وأن ينفق على هذه الخدمة بما يحقق العدل والكفاية.

٩- الإحسان وهو الإنفاق على من لهم حق الشكر لما أسدوا من جميل سابق من الوالدين والأهل وذوي القربى.. إنفاقا يتسم بالحسن والوفاء ورد الجميل واسترضاء القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان:١٥). ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (البقرة:٨٤).

ولا ينبغي أن يسيء أحد فهمَ كلمة الإحسان هنا، فيظن أن البرّ بالوالدين إحسان إليهما، لأن الإحسان هنا لم يرد بمعناه المعروف، وإنما يعني المجازاة على فعل بمثله كما قال القرآن: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:١٩٥).

١٠- الهدايا وهو الإنفاق على ما يُهدى للأصدقاء في مختلف المناسبات لنشر المحبة والمودة بين الناس.. وفي الحديث النبوي: "تهادوا تحابوا".. وقال: "مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" (الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار). وأفضل طريق لإهداء الهدية هو الضيافة، كما ذكره القرآن عند الحديث عن ضيوف إبراهيم ولوط عليهما السلام. فالأسف أن المسلمين قد تغافلوا عن هذا الأمر الرباني أيضًا، وخاصة في المدن، مع أن الرسول ﷺ قد حث على ذلك لدرجة أن اعتبر إكرام الضيف حقا له، وقال إنه إذا قصَّر أهل قرية في أداء هذا الحق فيمكن إجبارهم على أدائه. مع العلم بأن الهديّة ليست من أنواع الصدقة، وإنما هي رمز للإخوة الإسلامية، وأساس هام لرقي الحضارة والمدنية.

والخلاصة أن قوله تعالى: ﴿مما رزقناهم ينفقون﴾ لا يشمل الأمر بالتصدق فحسب، وإنما يدخل فيه كل النفقات المذكورة فيما سبق. وهذا أمر أساسي حيوي لخلق التقوى في أفراد المجتمع.

نظرة شاملة على مواضيع الآية

وتدل النظرة الشاملة على هذه الآية الكريمة أنها تتضمن ثلاثة أحكام:

١- الإيمان بالحقائق الخفية عن أنظار الإنسان، ونستدل بذلك على أن الإيمان بالمحسوسات وحدها ليس من الفضيلة في شيء، فالمحسوس يسلم به الناس ولا ينكره إلا أحمق أو معاند، ولكن المتقي أسمى من ذلك وأجل، فهو لا يدخر وسعا بالإيمان بالحقائق المكنونة، وتلك هي ميزة الكمال في الروحانية. إن الاعتراف بوجود النهر مثلا لا يمت إلى كمال العلم بصلة، لكن العالِم الجدير بوصف عالِم هو من يمعن النظر فيما وراء النهر من حيث منافعه المحتملة والممكنة، وتتبع منابعه ومصابه والتطورات التي تؤثر فيه، وأثره في البيئة التي يمر فيها، وكيف يمكن الاستفادة من هذه الآثار. فالشخص الجاهل لا يعلم عن النهر إلا ما يراه بعينه من وجود ظاهري حاضر فقط، أما العالم فإنه يدرك ما يغيب عن نظر الجاهل، ويستطيع

أن يستفيد ويفيد علمًا وعملاً بما يعرفه. وهكذا الحال في المجال الروحاني. فالعالم العامل أي المتقي لا يقتنع في الدنيا بما يشهده بعينيه فحسب، وإنما يعكف على التحقيق في بدايتها ونهايتها والبحث عن كنوزها ودفائنها الكامنة..وهذا هو الإيمان بالغيب. ومِن البيّن أن العلم والعمل لا يكتملان من دون هذا البحث العميق، فالإيمان بالغيب عنصر أساس هام لاكتمال الإنسانية، ولا يجرؤ على صرف النظر عنه إلا الجاهل الغافل.

٢- وبعد أن أكَّدت الآية أهمية الإيمان بالغيب لفتت أنظارنا إلى ما يترتب عليه من نتائج لازمة.. وهي إذا أمعن الإنسان النظر في مبدأ هذا العالم، واستبان له بالأدلة البينة وجود الخالق جلّ وعلا.. عندئذ يندفع نحو توطيد علاقته بخالقه وربه سبحانه. وهذا هو ما يسمى بالعبادة وإقامة الصلاة.

٣- وإذا تقوت صلته بالله خالق كل شيء فإنه بعد ذلك يهتم بالمخلوقات التي أوجدها هذا الخالق العظيم، فيبذل جهوده من أجل كل ما له صلة بربه، لأن حب الخلق يسري إلى قلبه من حبه للخالق،كما نرى أن حب الإنسان لوالديه لا يلبث أن يقوده إلى حب أشقائه. ولذلك بعد الإيمان بالغيب تأتي إقامة الصلاة، ثم الواجب الثاني وهو ﴿مما رزقناهم ينفقون﴾.

ويتبين مما سبق أن ورود إقامة الصلاة والإنفاق بعد الإيمان بالغيب ليس مصادفة، وإنما هو ترتيب محكم. وتقديم إقامة الصلاة في الآية على الإنفاق هو الترتيب الصحيح المنطقي، فإقامة العلاقة مع الله تعالى أولى بالتقديم، لأن حب المخلوق يأتي من حب الخالق جل وعلا.

ويختلف الإسلام في ذلك عن نظرية الفلاسفة ومَن على شاكلتهم ممن ينقصهم التعلق بالله تعالى، إذ يزعمون أن تقوية الصلة بالمخلوق تؤدي تلقائيا إلى التعلق بالخالق، وإذن فالأمر الأجدر بالاهتمام عندهم هو التعلق بالمخلوق. ولكن إذا تأملنا في هذه النظرية تبين لنا بطلانها. إن الإحسان إلى المخلوق، ولا شك، قسم من عبادة الله تعالى، ولكنه لا يوجب التقرب إلى الله، والعكس صحيح.. فإن التقرب إلى الله يوجب الإحسان إلى المخلوق، ومَن أحبَّ الله أحب خلقه.. والتاريخ يحكي لنا عن مئات بل آلاف الناس الذين خدموا البشرية أجلّ الخدمات، وتحملوا من أجل ذلك كل المشقات، وما فعلوا ذلك إلا حبًّا لله تعالى. إن إبراهيم وموسى وعيسى وكرشنا ورام شندر وزرداشت وبوذا وكنفوشيوس، وسيد الجميع وسيدنا محمد المصطفى ﷺ.. كل هؤلاء أمثلة رائعة لمن أحبوا الله وتعلقوا به، وخدموا بني الإنسان نتيجة هذا الحب. ولا يقدم لنا التاريخ مثالا واحدا لإنسان أحب البشر ومِن ثم أحب الله.

هذا من الواقع العملي. أما الدليل فإنه أيضًا يرفض زعم الفلاسفة. إن حب المخلوق إما أن يكون ثمرة حب الوطن أو بسبب عاطفة طبيعية. ومَن أحبَّ بني وطنه، فيمكن أن يعاديَ غيرَ مواطنيه حسب مقتضى الوطنية، وبدلا من أن يتوجه إلى الله تعالى يبقى مقيدا بأحابيل السياسة، وينساق وراء أهدافها.

وصاحب العاطفة الودودة لن يندفع إلى حب الناس بدافع عقلي، وإنما يكون مسوقًا بعاطفة. ومَن قادته عاطفته لا يدرك الخالق تمام الإدراك. أما مَن استعمل قواه الفطرية في محلها، فإنه يتفكر فيما بدا أمامه من خلق الله، وبالتالي يمكن له أن يهتدي إلى الصانع جل وعلا وإن اختفى عن نظره، فهذه الصلة بالخلق ليست إلا وسيلة للتعرف على الخالق والتعلق به، ثم يترتب على هذا التعلق الرجوع على الخلق بالمحبة. مثل هذا الإنسان الذي يُعمل عقله فيما أدرك، ويصل بهذا إلى معرفة الخالق ومحبته، ثم يحب غيره بسبب محبته لله، فإنه يكون قد سلك الطريق السليم. وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا المعنى عندما سئل عن الأعمال الحسنة التي يعملها المرء قبل إسلامه فقال: "أسلمتَ على ما أسلفتَ" (مسلم، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده، كتاب الإيمان). فعمله الصالح مقبول محفوظ له ما دام قد عرف الله وأسلم له.. إن حب المخلوق بسبب حب الله هو الطريق الطبيعي، وغيره استثناء لا يصلح إلا إذا كان الإنسان عديم العلم بذات الله عز وجل. والذي يحظى بمعرفة الله لا يلبث أن يندفع إلى عبادته، ومن ثم يشغف بحب مخلوقاته، لأن لقاء الله تعالى يعني العلم الكامل بصفاته عز وجل. ومَن كان على بينة مِن أن الله تعالى رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.. فمن الطبيعي أن يصطبغ بهذه الصفات، ويحسن إلى عباده حسب مقتضاها، وإن لم يفعل كان قلبه خلوًا من آثار تلك الصفات. وإلى هذه الحقيقة أشار القرآن الحكيم بتقديم إقامة الصلاة على الإنفاق من الرزق.

وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ

﴿٥﴾

شرح الكلمات:

أنـــزل: أنـــزل الله الكلام: إذا أوحى به.

الآخرة: مذكِّرها آخر، وضدُّها الأولى (الأقرب). وقد وردت هنا صفة لموصوف محذوف ويكون معناها: القادمة أو الواقعة فيما بعد.

يوقنون: أيقنَ الأمرَ وأيقن به: علِمه وتَحقَّقه. واليقين: إزاحة الشك وتحقيق الأمر (الأقرب).

التفسير: تذكر هذه الآية ثلاث صفات أخرى للمتقين. فهم يؤمنون بالكلام الإلهي المنزل على محمد ﷺ. وقد ذكرت هذه الصفة لحكمة هامة وهي أن العمل المقبول لا بد له من حسن النية والاتجاه الصحيح نحو العمل. وحسن النية وحده غير كاف إلا كان أسلوب العمل الصحيح مجهولا تماما. ولكن

إذا عرف أسلوب العمل الصحيح أو كان من الممكن معرفته، ثم يصرف المرء نظره عن الاتجاه العملي الصحيح أو يتغاضى عنه مدعيا حُسْنَ النية.. فلن يكون ذلك مقبولا أو معقولا.. فمَن أهمل الصحيح متعمدا فقد شهد على نفسه بفساد النية بالدليل العقلي.

ثم إن الاتجاه العملي الصحيح في الأمور الروحانية هو ما يأتي من عند الله، ولذلك فحسن النية هو لمن لا يدّخر وسعًا في معرفة ذلك الطريق والتمسك به عمليا. وبما أن القرآن الحكيم يعلن بأن الطريق الصحيح بعد البعثة المحمدية هو ما تجلى به الله على النبي ﷺ، لذلك لا يبلغ الغايات الروحانية العليا إلا مَن آمن بالكلام المترل عليه ﷺ. فبعد أن يؤمن المتقي إيمانا إجماليا، عليه أن يبذل جهده لتدعيم إيمانه بالعمل.. والعمل الصحيح المدعم للإيمان والتقوى هو ما أوحى به الله إلى سيدنا ومولانا ﷺ. وإذن فلا بد من الإيمان بالوحي المترل عليه لاستيعاب عناصر التقوى.

ويزعم البعض أن الله يأمر بالإيمان بالقرآن وحده، و لم يأمر بالإيمان بالرسول ﷺ، فالطاعة إذن لأوامر القرآن، وليس للرسول طاعة عليهم، وإلا كان ذلك شركا. وقد ظهر أصحاب هذا القول في الهند منذ فترة، وأصلهم مِن الخوارج القائلين بأن "الحكم لله وحده والأمر شورى بينهم".

لقد انخدع هؤلاء بسبب عدم تدبرهم في معاني القرآن الحكيم. وقد بنوا وهمهم هذا على الآيات التي يعلن فيها القرآن أنه كتاب كامل لا ينقصه شيء، وقالوا بأنه لا داعي لهداية هاد أو تفسير مفسر. وتغالوا في ذلك حتى أوّلوا الآيات التي تأمر بطاعة الرسول، بقولهم أن المراد بالرسول هو القرآن نفسه. ولكنهم لا ينتبهون إلى أن القرآن الكريم نَسَب نزول الكتاب إلى الرسول وإلى الأمة حيث يقول: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ (البقرة:٥). ويقول أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلا﴾ (الأنعام:١١٥). وهذا الأسلوب لا يختص بالنبي ﷺ فحسب، بل يَعمّ سائر الأنبياء. قال الله تعالى عن موسى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَاب﴾ (البقرة: ٨٨). وقال أيضًا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وهنا تساؤل: لماذا نسب الله نـــزول الكتاب إلى الرسول مرة وإلى الناس مرة أخرى، و لم يكتف بذكر إنزاله إلى القوم فقط؟ السر في ذلك أن نسبة الكتاب إلى القوم يعني أن الكتاب أنـــزل للناس، وهذا تنبيه لهم بأن تعاليمه مناسبة لهم وتصلح لأحوالهم، وترمي إلى ما يعود بالخير عليهم. أما نسبة نزول الكتاب إلى الرسول فتشير إلى وجود موافقة تامة بين فطرة الرسول وبين ما يشتمل عليه الكتاب من تعاليم، وأنه تفسير عملي حي للكتاب. ولولا ذلك لما قيل: ﴿أنـــزل إليك﴾ مرة، ﴿وأنـــزل إليكم﴾ مرة أخرى، أو ﴿آتينا موسى الكتاب﴾ مرة ثالثة، ولاكتفى بقول: آمنوا بالقرآن، أو آمنوا بالتوراة. فما دام القرآن الحكيم لم يستخدم هذا الأسلوب فلا بد من الاعتراف بأن هذا الأسلوب البياني فيه حكمة

هامة، وهذه الحكمة هي الإشارة إلى أن الكتاب ليس هاديا وحده. وإنما الرسول الذي أنزله الله إليه هادٍ أيضًا.

وقد جاءت هذه الإشارة أكثر وضوحًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الإنعام: ١٢٥). فهذه الآية توضح بكل جلاء أن حامل الكلام الإلهي ليس ساعيَ بريد، بل يترل الله كلامه على رجل يستطيع فهم الرسالة جيدا، وتفهيمها للناس تماما، وأنه أولى بالاطلاع على دقائق كلام الله من الآخرين، وأنه لا يعطى كلمات الكتاب فحسب، بل يوهب أيضًا فهما كاملا لها، لأن فطرته توافق الكلام الإلهي موافقة تامة.

وما دام الأمر كذلك فمِن السخافة القول: "إن الكلام موجود، فما الفرق بيننا وبين من جاء به؟ نحن نكتفي بالإيمان بهذا الكلام، ونفهمه بأنفسنا!" هذا القول السخيف يشابه قول الكفار الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣٢). فلا الكفار كانوا محقين في قولهم هذا، ولا هؤلاء المتظاهرون بالإيمان مصيبون في اعتراضهم هذا، وإنما الحق أن كلام الله يشمل الإيمان بالذي أنــزل إليه، وبكلماته التي يفسره بها، لأن الكلام الإلهي ألفاظ، والرسول صورة تطبيقية لها، وقد وقع الاختيار عليه لتبيين ما نزل إليهم بعمله وأسوته، ويفسره بكلماته.

بهذه المناسبة يجدر بنا إلقاء مزيد من الضوء على معنى (الترول) عندما ينسب إلى القرآن والوحي الإلهي وغيره من الأمور. يظن بعض المسلمين وغيرهم، ممن يجهلون حقيقة التعاليم الإسلامية، عند قراءة مثل هذه الآيات أن الكتاب شيء مادي، يكتبه الله جل وعلا بيده، ويناوله لملك الوحي، ليترل من السماء إلى الأرض، فيسلمه إلى الرسول. الواقع أن هذا التصور المادي لِما يترل من السماء إلى الأرض ناشئ عن فهم خاطئ لعدة أسباب هي:

١. تعريف حقيقة السماء
٢. ماهية الملائكة وكيفية صدور أعمالهم
٣. وسائل توصيل أحكام الله إلى الناس
٤. معنى النــــزول

وقد سعى بعض المستشرقين، مستندين إلى بعض الروايات المتداولة بين المسلمين، إلى تفسير آيات النــــزول تفسيرا ماديا، ومنهم سيل (sale) في مقدمة ترجمته للقرآن. وكان من الممكن لهذا المستشرق أن يؤول الآيات القرآنية كما أول روايات التوراة التي تذكر نزول الله إلى الأرض لتعذيب أهل سدوم وعمورة (تكوين:١٨). ونزول روح الله على داود (صمويل:١٦)، ونزول روح القدس على المسيح

بصورة حمامة (يوحنا:٣٢). والذي صدّقه المسيح عيسى نفسه (متى). ولكن المستشرق أخذ بالمعنى الحرفي الظاهري.

والحق أن القرآن الكريم استعمل كلمة ﴿السماء﴾ في معانٍ مختلفة. فهي حينا تأتى بمعنى السحاب، وحينا بمعنى العلو، وحينا آخر بمعنى علو المقام والمنـــزلة. وهي إذا استعملت لله عز وجل فهي تعبير عن علو الشأن وسمو المرتبة فحسب، ولا تعني العلو الظاهري المكاني الذي قد يتصوره البعض. وكيف يكون ذلك والله تعالى يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:٧١). وعدم مراعاة هذا الفرق أوقع المسلمين في الخطأ في فهم معاني ﴿السماء﴾.

ثم أوضح القرآن أن الملائكة ليسوا كائنات مادية، وإنما هم العلة الثانية في هذا الكون بعد الله تعالى. وهم الواسطة الأولى لتنفيذ أحكام الله تعالى في هذا النظام الكوني. فمنهم من هو مأمور بتبليغ كلام الله إلى عباده. ومنهم من هو مسئول عن نظام المواليد، ومنهم من هو مسخر لتنفيذ أحكام الموت وهلم جرا. فكأنهم الأسلاك الحساسة التي يحرك بها الله تعالى هذا النظام العالمي، كما وصفهم القرآن: ﴿وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (الصافات:١٦٥). أي أن كلا منهم يقوم بما هو مكلف به وهو مقيم لا يفارق مقامه، وهو في ذلك كالشمس تضيء ما حولها من الكواكب وهي تلازم مقامها. فنزول الملائكة مجرد استعارة، ونزول الكلام بهم استعارة أيضًا.

والخطأ الثالث في فهم معنى النـــزول ناشئ عن تصور بعض الناس أن الله تعالى يحتاج في أعماله إلى وسائل مادية مثل الإنسان، فينـــزل كلامه مكتوبا، ويرسل به رسولا إلى عبد اختاره من عباده. مع أن القرآن يوضح هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٨).

أما عن كلمة ﴿النزول﴾ فقد قال الله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا *رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّه﴾(الطلاق:١١و١٢). والرسول ﷺ لم ينـــزل السماء، فمعنى النزول هنا مجازي، وأن الكلمة تستعمل الخلق، وإيجاد شيء عظيم يُعَدّ مِن المنن الكبرى كقوله:

﴿أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً﴾ (آل عمران:١٥٥).

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر:٧).

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ (البقرة: ٨٥)

﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً﴾ (الأعراف:٢٧).

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد:٢٦).

فمعنى نزول كلام الله هو التعبير عن كون هذا الكلام نعمة عظمى يؤدي جحودها بالإنسان إلى الدرك الأسفل من الهوان. وهذا كلام لا يحتاج إلى نزول مادي، بل إنه علم إلهي خاص يحظى به المقربون

من عباده بآذانهم وعيونهم وقلوبهم، مترّهًا عن الوساوس، نقيًّا مِن الشوائب، وتوهَب له من الله صورة اللفظ وصوته. وهو ليس من قبيل الأخيلة أو الأوهام كما تتوهم بعض فرق الهندوس وأتباع البابيّة.

ويجب أن لا ينخدع أحد هنا فيظن أن المتقين هم فقط أولئك الذين آمنوا بالنبي ﷺ، بل يقول القرآن إن المتقين قد مضوا أيضًا قبل النبي ﷺ، وآمنوا بالوحي الذي أُنـــزل مِن قبله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء:٤٩). وهذا صحيح، لأن من لا يؤمن بكلام الله الذي يترل في زمنه كيف يعتبر مُتَّقيًا!

وقوله تعالى: ﴿وما أُنْـــزِلَ مِن قَبْلِك﴾ هو العلامة الثانية للمتقين في هذه الآية، فهم يؤمنون بما نزل قبل رسول الله ﷺ من الوحي أيضًا. الله أكبر! ما أعظم هذه المعجزة القرآنية! رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة حتى بلسان قومه، رجل عربي من قوم هم أشد الشعوب تعصبا وعنادا.. يتلقى الأمر من الله تعالى بأن النجاة من الضلال لن تحصل بالإيمان بما جاءه من وحي، وإنما لا بد لها من الإيمان بما جاء قبله من وحي كذلك. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٥). ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٨).

فكأن محمدًا ﷺ مجمع البحرين حقًّا، بل كان مجمع البحار الروحية كلها. فمن يؤمن به فهو ملتزم بالإيمان تلقائيا بالأنبياء السابقين كآدم ونوح وإبراهيم "عليهم جميعا صلاة الله وسلامه"، ويؤمن أيضًا بأنبياء بني إسرائيل كموسى وداود وإدريس وإلياس وزكريا ويحيى، ويؤمن بمؤسس المسيحية أيضًا عيسى عليه السلام، ويؤمن بأنبياء ظهروا في الهند ككرشنا ورام شندر، وأنبياء جاءوا إلى الفرس كزرادشت.. فهل هناك أدل على السماحة والصدق في طلب الحق من هذا التعليم الإسلامي؟ وأنه منهج مترّه عن العصبية القومية والتفريق العنصري، بل هو السعي الحثيث إلى الحق والاعتراف به حيثما كان، وإظهاره أينما كان خفيا.

آه! ما أجحد الدنيا التي تعادي مثل هذا الكتاب العظيم! لَيْتهم يميلون إلى الإنصاف، وليتهم يُصدرون حكمهم بعد تفكير، وليتهم يتدبرون الآيات الأولى من القرآن!؟

إن مسلك القرآن الكريم لا يقر بمنهج المسيحيين الذين لا يرتدعون عن اتهام الأنبياء بارتكاب الكبائر مع إيمانهم بهم. فالقرآن ينـــزه جميع الأنبياء ويصدقهم، ويطالب المسلمين المؤمنين به أن يؤمنوا إيمانا إجماليا بالأنبياء الصادقين ويصدقوهم. وبذلك يفتح الإسلام باب السلام العالمي، لأن المسلم لن يسيء إلى نبي من الأنبياء، بل سوف ينظر إليهم باحترام وتقدير وتنـــزيهٍ عما رماهم به أعداؤهم وأتباعهم على حد سواء.

والعلامة الثالثة في هذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾. والآخرة هي الأمر المتأخر، ولذلك سميت الحياة بعد الموت بالحياة الآخرة، ووصف يوم القيامة باليوم الآخر، وسميت العاقبة بالآخرة لأنها تتأخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى: ٥).

ومعنى قوله: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أنهم على إيقان بأمر متأخر. أما ما هو هذا الأمر؟ فيمكن أن يكون المراد به القيامة أو الحياة بعد الموت، فهو المعنى الأكثر استعمالا في القرآن الحكيم كما في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ (البقرة:١٠٣)، ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ (النمل:٦٧)، فيكون المعنى أن المتقين موقنون بالحياة بعد الموت.

ويمكن أن يكون المراد بالآخرة البعثة الآخرة للرسول ﷺ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة:٣ و٤).

فالمتقون يؤمنون ببعثة إحيائية آخرة لرسالة المصطفى ﷺ في آخر الزمن، ويعود بها الإسلام إلى ما كان عليه في عهد النبي الكريم ﷺ. وفي تلك البعثة الآخرة يتنزل الوحي دون تشريع حسب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فُصّلَت:٣١). ومن يتشرف بتلقي الوحي الإلهي لهذه المهمة سيتصف بمقام النبوة التابعة من معين النبوة المحمدية. وذلك المقام متوقف على إطاعة الله تعالى ورسوله محمد المصطفى ﷺ كما يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء:٧٠).

وذكرُ الإيقان بالآخرة تشجيع للمسلمين كي يضاعفوا مساعيهم في المجالات الروحانية، لأن من يؤمن بها سيندفع نحو بذل جهوده لنيل تلك الحياة كما سعى لها صحابة النبي ﷺ والتابعون ورجالات الإسلام الصالحون من بعدهم في كل عصر.

ومما يلفت النظر في الآيتين السابقتين من سورة البقرة أن كل آية منهما تبدأ بشيء ويتلوه أمران. فكأن الآية الأولى منهما تشير إلى أن إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله تابعان للإيمان بالغيب، والآية الثانية تدل على أن الإيمان بالوحي السابق والإيقان بالآخرة تابعان للإيمان بالوحي المحمدي. ومما لا شك فيه أن الوحي السماوي السابق للإيقان بالآخرة.. لا يحصلان في هذا العصر إلا عن طريق القرآن المجيد. فَلَقد أمست أحوال الأنبياء السابقين مبهمة؛ بحيث لا يمكن أن يتبين صدقهم وعظمتهم إلا في ضوء القرآن. وكذلك لا يتيسر اليقين بالوحي في المستقبل إلا بالإيمان بتعاليم القرآن، لأن كل دين آخر قد

أغلق باب الوحي، فلا يدعي أي من هذه الأديان أن الإيمان به يُشَرِّف الإنسانَ بكلام الله عز وجل اليوم أيضًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

شرح الكلمات:

المفلحون: أفلح. فاز وظفر بما طلب، نجح في سعيه وأصاب في عمله (الأقرب). والفلاح: الظفر وإدراك بغية (المفردات). ويقال لكل من أصاب خيرا مفلح. والفلاح نجاح يغبط به الآخرون (تاج العروس). وقد اتفق أئمة العربية أنه ليس هناك كلمة أكثر شمولا للخيرات الدنيوية والدينية من الفلاح.

التفسير: تشير جملة (أولئك على هدى من ربهم) إلى ثلاثة أمور:

أولا: أن الهدى من رب المتقين. فمن حظي بالتقرب إلى الله تعالى تقدم بخطوات متتابعة حتى يبلغ منتهى الكمال في رقيّه، لأن الرب هو من يتدرج بالإنسان من مرحلة إلى مرحلة أعلى حتى يصل به إلى الكمال.

ثانيا: أن رب المتقين هو ﴿ربهم﴾. وإضافة كلمة ﴿رب﴾ إلى ﴿هم﴾ تعني أن الغاية من خلق الإنسان هي الهداية لا الضلال، ولما كان الله تعالى هو الرب الذي تكفل في هذه الغاية فسيتيح لهم كل وسائل الاهتداء إن هم اهتموا بطلبه.

ثالثا: إن كون المتقين ﴿على هدى﴾ يعني أن الهدى مطيتهم. والمعروف أن العظيم إذا دعا أحدا إلى لقائه أرسل له مركبا يوصله إليه تكريما له وترحيبا به وإعانة له. وهكذا سيكون الهدي الإلهي مطية للمتقين توصلهم إلى ربهم جل وعلا. وهذا التعبير مألوف في اللغة العربية، فيقولون "جعل الغواية مركبا" أو "امتطى الجهل" بمعنى أنه حيثما يتوجه اتجه إلى الضلال. فالعبارة تعني أن الهدى مطية للمتقي المتحلي بالصفات المذكورة في الآيات السابقة، وأنه يقوم بكل أعماله خاضعا لهدي الله تعالى، فتسمو أعماله عن الجهل والضلال. ولا ينال هذه الميزة إلا الذي يتلقى الهدى عن طريق الوحي من الله تعالى كل حين، وإلا فالذي يستخدم العقل فقط، فإنه كثيرًا ما يقع في الخطأ.

كما يشير قوله تعالى ﴿على هدى﴾ أيضًا أنهم لا يجدون صعوبة في الاهتداء إلى الله، لأن الهدى يسهل سفرهم كالمطية.

وقد وردت كلمة "هدى" نكرة دلالة على عظمة هدايته.

وقوله تعالى ﴿أولئك هم المفلحون﴾ يعني أن من كان الهدي الرباني ذريعته في حياته فلا بد أن يظفر بما سعى له، ويصلح حاله، وينجو من الشرور، ويبقى ذكره وثمار عمله.

ورب قائل يستدرك: ولكننا نرى بعض المقربين يقاسون الشدائد، وبعضهم يُقتل، فكيف يتحتّم نجاحهم؟

فالجواب: أن المفلح من نال بغيته، وليس المراد بفلاح المتقي أنه ينال المتع المادية والراحات الجسمانية. إن المقربين ينالون، ولا شك، فلاح الدنيا ونعيمها أيضًا، ولكن هذا النوع من الفلاح أمر عارض وليس غاية مقصودة، بل أن بغية المتقين النهائية هي التقرب إلى الله تعالى ونشر رسالته الحقة، و لم يخب في ذلك أحد المتقين. لقد سعى اليهود للقضاء على المسيح الناصري عليه السلام، وعلقوه على خشبة الصليب لقتله، فهل نجحوا في ذلك أو قضوا على رسالته؟ كلا، بل إن المسيح نجح رغم قوة معارضيه وكثرة مخالفيه. لقد استشهد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما أمام جيوش يزيد. فهل أفلح يزيد أو خاب الحسين؟ كلا، كان الحسين صاحب الغاية الشريفة من المفلحين، واعترف العالم بصحة ذلك الشرح للنظام الإسلامي الذي جاد الإمام الحسين بحياته من أجله، و لم يجد يزيد من علماء المسلمين وعامتهم من يؤيده. إن الموت أو القتل في هذه الحياة العاجلة لا يمنع الفلاح ما دام إدراك البغية متحققا حسب وعد الله تعالى. ولولا صمود واستشهاد الحسين ورجاله في كربلاء ما هبّ علماء الإسلام بحماس وقوة لإحياء تعاليم الإسلام وبيان حقائقه الناصعة. فزادها إشراقا أبديا.

وفي هذه الآية إشارة أيضًا إلى أن دعاء الفاتحة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ يستجاب باتباع القرآن، وأن الإنسان ينال فعلا وصال الله بطريق التقوى الذي يمهده القرآن، فلا تبقى جهوده منحصرة في الدعاء فقط.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦

شرح الكلمات:

كفروا: كفر الرجل ضد آمن. كفر نعمة الله وبها: جحدها وسترها (الأقرب). الكفر في اللغة ستر الشيء. وكفر بنعمة وكفرانها: سترها بترك أداء الشكر. ولما كان الكفر يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود. والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحدون الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثها (المفردات).

أنذرتهم: أنذره بالأمر: اعلمه وحذره من عواقبه قبل حلوله. وأنذره: خوَّفه في إبلاغه. ويقال: أنذرت القومَ سيرَ العدو إليهم فنذروا، أي أعلمتهم وخوفتهم فحذروا واستعدوا (الأقرب). والهمزة في (أأنذرتهم) تفيد التسوية أي يستوي إنذارك لهم أو عدم إنذارك.

التفسير: بعد أن جرى الحديث عن أهل التقوى والإيمان الصادق تتحدث هذه الآية عن صنف من الناس.. إذا سمعوا القرآن الكريم أعرضوا عنه ولا يتدبرونه، ولا يبرحون متمسكين بكفرهم على الرغم من الأدلة الناصعة. وقد أشارت آيات أخرى إلى هؤلاء الكافرين وبينت مسلكهم الذي يحجبهم عن الإيمان. فمثلا يقول تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس:٣٤). ويقول: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأعراف:٣١). وقد ورد نفس المضمون في سورة النحل (آية ٣٨) وسورة يس (الآيات ٩-١٢).

ولا يراد من هذه الآية أن الكفار لن يؤمنوا في المستقبل، فهذا عكس الواقع؛ إذ آمن كثيرٌ من الكفار بعد نزول هذه الآية، بل نزلت بعدها سورة النصر التي تصرح بأنه: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾.. إذن فالآية لا تنفي إسلام الكفار أصلا. الكافر هو المنكِر، فمن قدّم له الحق وتثبت منه وقبله فسوف يؤمن به. أما الكافر الذي يبقى على إنكاره ويتشبث بالباطل بعد أن عرف أدلة الحق.. فهذا لن يؤمن أبدا ما دام يعتمد الإنكار، ويسد طريق الاهتداء على نفسه. والواقع أن القرآن جاء لهداية الكفار، والآية تدعوهم إلى ذلك بعدم التمسك بالإنكار إذا ما تجلت لهم دلائل صدق القرآن وتعاليمه.

ولعل القائلين بهذا المعنى الخاطئ لم يدروا أن الهمزة في مثل هذه المواضع لا تكون للاستفهام، بل هي تشابه المصدر معنى. فمعنى الجملة: إن إنذارك إياهم وعدم إنذارك سواء. فهي جملة معترضة للتأكيد أو للاستدراك، ويمكن أن تكون حالا أو صفة أيضًا، ومعناها:

١- أن الكفار الذين وصل بهم الحال من العناد بحيث يستوي إنذارك إياهم أو عدم إنذارك.. لا يؤمنون. فإن تركوا العناد، وهو مخالفة الحق وردّه مع معرفته، أمكن لهم أن يؤمنوا.

٢- والكفار الذين يستوي فيهم إنذارك أو عدم إنذارك لا يؤمنون، لأنهم ليسوا محلا للإنذار فلا جدوى من تخويفهم من الله تعالى.

فالكفار على نوعين: نوع يؤمن بدين من الأديان، فيؤمن بالله والحشر والنشر، فإذا قدمت لهم حقيقة من الحقائق الروحانية ونبهتهم إلى خشية الله اتقوه ومالوا إلى تدبرها، وإذا عرفوا صدقها آمنوا بها، ونوع آخر لا يؤمن بدين ولا يؤمن بالله والحشر والنشر.. فلا فائدة من تخويفهم من الله. إنهم يستهزئون باسم

الله جل وعلا. فهؤلاء بحاجة أولا إلى تقديم الأدلة على وجود الله والحشر والنشر، ثم بعد ذلك يوجهون إلى ما جاء به النبي من حق، لأن خشية الله لا تتأتى إلا بعد الإيمان به، وعندئذ يمكن أن يؤدي الإنذار إلى الإيمان.

٣- إن إنذارك الكفارَ -الذين يعرضون حتى عن مجرد السماع- أو عدم إنذارك سواء عليهم. إنهم لا يؤمنون ولن يؤمنوا.

خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧

شرح الكلمات:

ختَم: خَتَم خَتْمًا وخِتامًا إذا طبعه ووضع عليه الخاتَم. ختَمَ الصَّكَّ وغيره: إذا وضع عليه نقش خاتمه حتى لا يجري عليه التزوير.(الأقرب). وختم الله على قلبه: جعله بحيث لا يفهم شيئا، ولا يخرج عنه شيء (كليات أبي البقاء). والختم والطبع على وجهين، مصدر ختمتُ وطبعتُ وهو تأثير الشيء كنقش الخاتم والطابع، والثاني: الأثر الحاصل على النقش، ويُتَجوَّز بذلك تارة في الاشتياق من الشيء والمنع منه، اعتبارا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب. وقوله: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ إشارة إلى ما أجرى الله به العادة أن الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل أو ارتكاب محظور، ولا يكون منه تلفُّتٌ بوجه إلى الحق، يورثه ذلك هيئة تُمَرِّنه على استحسان المعاصي، وكأنما يُختمُ بذلك على قلبه (المفردات). والختمُ والطبع واحد في اللغة، وهو التغطيةُ على الشيء، والاستيثاقُ من أن لا يدخله شيء (التاج).

قلوب: جمع قلب أي الفؤاد، وقد يطلق على العقل (الأقرب). ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من العلم والروح والشجاعة. وجائز في العربية أن تقول: ما لَكَ قلبٌ، وما قلبك معك، أي: ما عقلك معك. وأين ذهب قلبك: أين ذهب عقلك. وكان له قلب: أي تفهُّمٌ وتدبرٌ (لسان العرب).

فمعنى ﴿ختم الله﴾ أن الله جعل قلوبهم بحيث لا تفهم شيئا، و لم تبق في عقولهم مادة التفكر والتدبر.

السمع: سمع الصوت: أدركه بحاسة الأذن. والسمع: حِسُّ الأذن؛ والأذنُ؛ وما ولج فيها من شيء تسمعه. والسمع: الذكر المسموع، وجمعه أسماعٌ (الأقرب). والسمع قوة في الأذن به يُدرك الأصوات، وفعلُه يقال له السمع أيضًا. ويعبر تارة بالسمع عن الأذن، وتارة عن فعله كقوله تعالى: ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾، وتارة عن الفهم كما يقال: لم تسمع ما قلت، وتارة عن الطاعة (المفردات).

أبصار: جمعُ بَصَر وهو حاسة الرؤية؛ العيْنُ؛ العلمُ (الأقرب).

عذاب: كل ما شق على الإنسان ومنعه عن مراده. وكل عذاب في القرآن فهو التعذيب إلا قوله ﴿وليشهَدْ عذابهما طائفة﴾ فإن المراد الضرب (الكليات). والعذاب: الإيجاعُ الشديد. فالتعذيب في الأصل هو حمل الإنسان أن يَعْذَب أي يجوع ويسهر. يُقال: عذَبَ الرجل: ترك الأكل والشرب. وقيل أصله من العذاب أي الماء الحلو. وعذَّبتُه: أزلتُ عذبَ حياته أي حلاوتها (المفردات). فمعنى العذاب: الإيذاء؛ حرمان الإنسان مما يُسعد حياته؛ إفشال هدف حياته.

التفسير: هذه الآية تبين مصير أولئك الكفار الذين يتصفون بالعادات السيئة المذكورة في الآية، وليس جميع الكفار. فمن السنن الطبيعية أن العضو الذي يعطله الإنسان عن العمل يفقد المقدرة على أداء عمله شيئا فشيئا إلى أن يتعطل.. فالعين يزول عنها إبصارها إذا عُطّلت، والأذن تُصمّ إذا لم تستعمل لمدة طويلة، واللسان يتعطل عن الكلام إذا لم تستخدمه لزمن طويل، والذراع تفقد قوتها إذا توقفت عن العمل. وقد نرى بعض الهندوس يفلجون أيديهم بمنعها عن الحركة مدة طويلة. وكذلك الحواس الباطنة.. إذا تركها الإنسان و لم يستعملها مدة من الزمن تعطلت.

يشير الله تعالى في الآية الكريمة إلى أن تلك الحواس الثلاث وسائل للاهتداء، وأن عناد الكفار يجعلهم يهملون قلوبهم وآذانهم وأعينهم. فالقلب للتفكير، ومن يعوِّد نفسه على استعماله يُصِب الحقائق الكثيرة. والأذن للسمع، وبه يمكن للمرء أن يتعرف على الحقائق التي قد لا يدركها بفكره. والعين للنظر، وبها يمكن إدراك ما فات السمع والفكر. والشقي من يحرم نفسه من هذه الأمور كلها، فلا يمكن له أن يتعرف على حقيقة، أو أن يُسَلِّم بأمر بتاتا.. ولسوف يتأذى ويتألم من جراء ذلك، لأن أحكامه وقراراته كلها ستكون مجانبة للصواب.

ويزعم الزاعمون أن ختم الله على قلوب الكفار وسمعهم يعني إكراههم على الكفر. وهذا من الظلم الذي ينفيه القرآن عن الله تعالى إذ يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء:٤١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(يونس: ٤٥).

﴿وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر: ٨).

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات: ٨).

والقرآن ينفي الإكراه في مواضع عديدة. فلو جاز لكان الإكراه على الإيمان وليس على الكفر، كما قال عز وجل: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٣٠).

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام: ١٥٠).

ويتبين من القرآن أن الإيمان والكفر من أعمال الإنسان، فقد قال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ (البقرة: ٢٥٤).

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ (الروم: ٤٥).

والحق أن الختم والغشاوة ليسا إلا من ثمرات أعمال الإنسان نفسه كما وضح ذلك القرآن في قوله: ﴿.. طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ..﴾ (النساء: ١٥٦).

﴿.. آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (المنافقون: ٤).

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (يونس: ٧٥).

﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٦).

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٥).

فالختم والطبع والتغطية كلها بسبب كفرهم واعتدائهم وتكبرهم وتجبرهم.

وقد نسب الختم والطبع إلى الله في هذه الآية وغيرها من الآيات، لأن النتائج المترتبة على أعمال الإنسان هي من عند الله تعالى طبق مشيئته وقانونه، فالكفر والعناد من عمل الإنسان، أما النتيجة وهي الطبع فهي من قانون الله تعالى، ولذلك نسب إلى الله. وفي آية أخرى نسب النتيجة إلى الكفار أنفسهم لأنهم تسببوا في تطبيق القانون الإلهي عليهم نتيجة عدم تدبرهم.. قال الله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد:٢٥).

فالذين يسدون أبواب الهداية في وجوههم، ويعطلون قلوبهم وآذانهم.. يعقب الله تعالى على أعمالهم بنتيجة توافقها تماما. وهذا ما يصدقه قول الرسول ﷺ:

"إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كان نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى يُغلف قلبُه، فذلك الران الذي قال الله عنه: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾" (تفسير ابن جرير).

ولقد شرح ابن جرير ذلك بقوله:

فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم.

ولا يغيبنّ عنكم أن الختم والحجاب ليسا ماديين، ويتضح ذلك من قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت:٦)، وقوله تعالى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الأعراف:١٨٠)، وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا

فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٧).

هذا، ولم تُنسب الغشاوة على الأعين إلى الله تعالى كما نُسب إليه الطبع على القلوب والآذان.. وذلك للإشارة إلى أن الكفار قد يعتذرون بأنهم لم يؤتوا العقل الراجح لفهم دقائق أحكام الله تعالى، أو لم تتح لهم فرصة سماعها، ولكن آيات الله في تأييد رسوله ونصرته كانت تتنـــزل عليه أمام أعينهم وعن أيْمانهم وعن شمائلهم.. فكيف يمكن لهم أن يتنصلوا من رؤيتها؟ وهذا يؤكد أيضًا أن نسبة الختم إلى الله تعالى كانت نتيجة فعلهم أنفسهم.. فكما تعاموا عن رؤية آيات التأييد الإلهية لرسوله كذلك تغابوا عن فهم حكم الله تعالى وتصامّوا عن سماعها.

وجدير بالملاحظة هنا أن السمع قد قدم على البصر بعد ذكر القلب، وهذا ترتيب مطرد في القرآن الكريم، ولهذا النسق حكمتان: الأولى ما ذكرناه آنفا من أن العقل الواعي له السبق في إدراك الحقائق، ثم إذا لم يدركها وحده استعان بما يسمعه من أدلة، ثم إذا لم تكفه تلك استفاد بما يراه بعينه. والحكمة الثانية أن قوة السمع في الكائنات الحيوانية تبدأ عملها قبل البصر، وهناك كائنات تبقى صغارها عمياء لفترة تقصر أو تمتد، وتدرك ما حولها بحاسة السمع.

ويلاحظ أيضًا أن الآية الكريمة ذكرت القلوب والأبصار بصيغة الجمع، أما السمع فبالإفراد. والحكمة في ذلك أن أفعال القلب تختلف في كل إنسان عن غيره اختلافا كبيرا، ويصل هذا التفاوت بين القلوب لدرجة أن بعض الناس ينزل تحت الثرى وبعضهم يصل إلى الثريا. وكذلك تختلف القدرة على إبصار الحقائق من آيات ومعجزات من فرد إلى آخر، وهكذا تختلف القلوب والأبصار فتتعدد. أما بالنسبة لسماع القرآن الكريم، فلا يتفاوت السمع وإنما هو نوع واحد، فهو كتاب وحيد من نوعه، لذلك يسمعون جميعا بسمع واحد.

هناك سؤال يقول: لماذا استعمل الله ﴿الختم﴾ للقلوب والأسماع وهو أشد من ﴿الغشاوة﴾ التي استعملت للأبصار، والتي يمكن أن تزول، ولكنه في موضع آخر يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (النحل: ١٠٩).

السبب في اختلاف هذا الاستعمال أن الإنسان يفكر أولا في قلبه، ثم يهتدي بسماع الدليل، وإذا لم يتمكن بعد هذا من الهداية يرى الآيات والمعجزات، وهذه تظهر شيئا فشيئا بعد نزول الكلام الإلهي.. فكأن الحجة عن هذا الطريق تقدم على مهل، لذلك يختم الله تعالى الأبصار في نهاية الأمر. الغشاوة توضع أولا ثم يأتي الختم. أما سورة البقرة فهي تذكر حالهم قبل الختم الذي لم يكن قد جاء أوانه بعد. وأما

سورة النحل فهي تذكر حالهم بعد ظهور المعجزات عندما لم يؤمنوا بالحق رغم مشاهدتها، فكأنه قد ختم على هذه الحواس كلها.

ولا يعني العذاب هنا عقوبة النار بعد الموت فقط، بل يعني أيضًا الحرمان من قُرب الله تعالى، لأن من معاني العذاب المنع والحرمان. فالمؤمنون سيصِلون إلى ربهم على مطية الهدي الرباني، ولكن الكفار سوف يُمنعون من رؤية الله ووصاله وأي عذاب أشد من هذا؟!

وتشير الآية أيضًا إلى أن الذين يتهاونون في استعمال القلب "أي العقل" والسمع والبصر يتأذون ويذلون في كل شأن من حياتهم، وهكذا لا يبرحون في العذاب دائما.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

آمنا: آمن: صدَّق. وقد سبق أن ذكرنا ثلاثة معانٍ للإيمان تحت آية: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾، ونُضيف إليها قول الإمام الراغب: "الإيمان يستعمل تارة اسما للشريعة التي جاء بها محمد ﷺ، ويوصف به كل من دخل في شريعته، مقرا بالله وبنبوته؛ وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء، تصديق بالقلب؛ وإقرار باللسان؛ وعمل بحسب ذلك بالجوارح". وقد بين القرآن الكريم هذا المعنى في قوله: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات:١٥)، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٥).

التفسير: كان الحديث من قوله تعالى ﴿هدى للمتقين﴾ إلى قوله تعالى ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ عن طائفة تؤمن إيمانا راسخا وتنال ما يترتب على إيمانها من خير أيّما نَيْل. ثم قوله ﴿إن الذين كفروا﴾ إلى قوله ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ يذكر طائفةً لا يبرحون على كفرهم وعصيانهم عنادًا فيلقوْن سوء نتائجه. وقد أُشير في هذه الآيات –ضمنيًّا– إلى الذين هم كفار من حيث العقيدة ولكن قلوبهم خالية من التعصب، وإذا عُرض عليهم الحق حاولوا فهمه، فإذا تبين لهم قبلوا به وصدَّقوه.

ومن هنا يبدأ ذكر طائفة أخرى من الناس هم المنافقون. والمنافقون على نوعين: نوع ينضم إلى المؤمنين ظاهرا، ولكنهم ينكرون عقائد الإسلام في باطنهم، وهم يتظاهرون بالإيمان من أجل المصالح الدنيوية أو العصبية القومية. ونوع آخر يصدِّق مبادئ الإيمان بالأدلة العقلية، ولكنهم لا يملكون من قوة الإيمان ما يمكنهم من الصمود وتقديم التضحيات. وهذا النوع يبدو عليه التكاسل والتهاون، ولا يكون

السبب وراءه اختلافا في العقيدة، بل ضعف القوة الإيمانية التي تجعلهم يلتزمون بما يؤمنون به. فإن اشتدت عليهم وطأة الكفار أظهروا ميلهم إليهم وأخذوا يُذكِّرونهم بعلاقاتهم الودية، ولا يرون بأسا في مداهنتهم، قائلين في أنفسهم: إن الحق غالب بفضل الله، ولا يضيره أن ندفع عن أنفسنا الأذى بالتودد لأعدائه.

هذه الآية إشارة إلى القسم الأول من المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام وإن كانت قلوبهم منكرة له. وهنا اقتصرت الآية على ذكر الإيمان بالله والإيمان بالآخرة.. اكتفاءً بذكر الحلقة الأولى والحلقة الأخيرة من حلقات الإيمان على سبيل الإيجاز المعبر عن المقصود تماما. والواقع أن هذا الأسلوب القرآني سمة إعجازية. فالقرآن كتاب جامع للعلوم كلها.. روحانية ومادية.. يتضمن الإلهيات، وعلم الأفلاك، والضرورات المعيشية، ومبادئ الاقتصاد، وأساسيات الاجتماع، والأحكام المدنية والأخلاقية، وأحكام العبادات، وما يتصل بالعباد من حقوق، وواجبات الحاكم والرعية والأغنياء والفقراء وأصحاب المصانع والعمال، وفيه حقوق الزوجين وأفراد الأسرة وواجباتهم، وفيه أحكام الحرب والسلم، ومبادئ القضاء، وآداب الأكل والشرب.. عشرات ومئات من الأحكام والتوجيهات.. ذكرا وشرحا مع بيان الحكمة وضرب الأمثلة. وكان عليه أيضًا أن يبصِّر الناس بآيات الله المتجددة، ويطلعهم على أعمال الأنبياء السابقين ومعاملة الله تعالى لهم، ويخبرهم بأنباء المستقبل.. ليزداد المؤمنون في كل زمن إيمانا، ويجد الكافرون فيه عبرة وهدى.

فكيف لكتاب أن يتناول كل هذه الأمور.. لولا هذا الإيجاز اللطيف المعجز. ومع أن الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)، وكذلك كتب الفيدا.. أضخم حجما من القرآن بكثير، إلا أن المقارنة بينها تكشف عن المكانة السامية التي يتمتع بها القرآن مادة وموضوعا، كلمة وأسلوبا، فالقرآن المجيد مع ما فيه من حقائق وافرة وموضوعات متنوعة ومنهج متكامل.. نجد أنه يتناول كل ذلك بأسلوب موجز بليغ، مع سهولة لفظه وسلاسة أسلوبه، ووضوحه وخلوّه من الألغاز والمعميات.

ومثل هذا الإيجاز لا يأتي إلا باتباع مثل هذه الأساليب اللطيفة. فإذا أريد مثلا أن يذكر تقسيما طبيعيا لشيء ما، اكتفى من حلقاته بالحلقتين الأولى والأخيرة. وإذا قصد إلى العبرة من إحدى قصصه، حذف ما لا ضرورة له، وذكر ما لا بد منه للاستنباط، وأتى من الكلمات ما يدل على أوسع المعاني. ثم ساق الجمل على نسق بحيث يعبر كل لفظ عن معناه المستقل.. مقترنا بسائر الكلمات. ثم رتب الآيات ترتيبا لو فُصِّلت معه كل آية عن موضعها لدلت على معنى خاص يغاير معناها وهي مرتبطة بسائر الآيات. ثم نسق مجموعات الآيات بحيث يدل كل حرف على معنى مستقل بجانب دلالته الخاصة من جهة اتصاله بما

قبله وما بعده. وقد اختار القرآن الكريم هذه الأساليب لكي تحتوي كلماته القليلة على معاني غير محدودة.

ولقد ذكرت ما سبق بشيء من التفصيل.. لأن بعض الجهلة يستدلون بمثل هذه الآيات على أن مجرد الإيمان بالله واليوم الآخر يغني عن لوازم الإيمان، إذ إن الإيمان، بزعمهم، يتوقف في هذه الآية على هذين الأمرين. ولعل هؤلاء الناس يجهلون أو يتناسون تلك المبادئ القوية المحكمة التي استعملها القرآن الكريم لأجل الإعجاز والجامعية.. وهي سمة عامة في جميع القرآن الكريم. وتدليل على ما سبق وتصديق لما أوردنا.. نسوق مثالا من القرآن:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣).

فمن هذه الآية يتبين أن الإيمان بالآخرة يستلزم الإيمان بالقرآن، ومن يؤمن بالقرآن فعليه أن يؤمن بمحمد ﷺ لأن الإنسان تشرف بهذه النعمة الكبرى -نعمة القرآن المجيد- عن طريقه ﷺ، وكذلك عليه أن يؤمن بالملائكة، لأن القرآن يذكرهم كثيرا. بل تبين هذه الآية أيضًا أن فعل الأعمال الصالحة تدخل في الإيمان باليوم الآخر لأن الله تعالى يقول هنا بأن الذين يؤمنون بالآخرة هم لا يؤمنون بالقرآن فحسب، بل أيضًا يعملون حسب تعاليمه.

وللآية الكريمة وجه آخر، فهي تحكي ما قاله المنافقون من إيمانهم بالله واليوم الآخر، وتركهم ذكر الرسول ﷺ والقرآن والملائكة عمدا، لأنهم لم يؤمنوا بهم.. فاكتفوا بما قالوا لخداع المؤمنين.

وفي قوله تعالى: ﴿ومن الناس﴾ تعريض لطيف بالمنافقين، إذ تشير إلى واجبهم كأناس لهم عقل وفكر، فكان عليهم ألا ينساقوا وراء من أسلم من قومهم دون أن يستخدموا عقلهم وفكرهم، فإنسانيتهم كانت تقتضي أن يتدبروا ما جاء به الرسول ﷺ.. فإن تبين لهم صدقه آمنوا به واستمسكوا به، وإن كان غير ذلك تمسكوا بما هم عليه من دين آبائهم. أما أن يقلدوا أحدا كالأنعام التي يتبع بعضها بعضا دون تدبر.. فهذا فعل يتنافى وخصائص الإنسان.

وهذه الآية وما سبقها من الآيات الكريمة ترد ردا حاسما على مزاعم من يقول بأن القرآن أمر بإكراه الناس على الإسلام، ذلك الخطأ الذي وقع فيه بعض المسلمين أيضًا. ولو فكر هؤلاء المتعنتون من أعداء الإسلام ومن انخدع بقولهم من المسلمين في هذه الآية وحدها لعرفوا حق المعرفة أن الإسلام يرفض الإكراه ويضاد الإكراه والإجبار. ذلك لأن الإكراه يسبب النفاق، وإكراه أحد على الإسلام يعني دعوته إلى التفوه بالإسلام والتظاهر به، وإن كان قلبه غير مطمئن إليه. وهذا هو ما تستنكره الآية وتعرِّض به. إن الإسلام دين يرفض بشدة دخول المنافقين فيه، ولكنه يرحب بكل من هو مطمئن القلب صحيح

العقيدة. ومن ثم فلا يتصور أبدا أن يرغم الإسلام أحدا على دخوله بقوة السيف أو بالإكراه. لا يمكن أن يسمح الإسلام بذلك، لأن الدين الذي يصف المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:١٦).

فالإسلام يريد مؤمنين واثقين مطمئنين إلى عقيدتهم، يضحون في سبيلها بكل غال ورخيص.. يريد إيمانا صادقا وليس نفاقا.. فكيف يُكره إنسان على ذلك؟

يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ

﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

يخادعون: خدع الشيءُ: فسد (التاج). خدعه: ختله وأراد به المكروه من حيث لا يعلمه (الأقرب). يقال: خادَعَ: إذا لم يبلغ مراده، وخدع إذا بلغ مراده. خادعه: إذا تركه. خادع العين: شكّكها فيما ترى. خادعه: إذا كاسده (الكليات). الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمرٍ يبديه على خلاف ما يخفيه (المفردات). الخدْع: إظهار خلاف ما تخفيه. وجاز استعمال (يفاعل) لغير اثنين لأن المثال يقع كثيرا في اللغة للواحد نحو عاقبتُ اللصَّ. والعرب تقول: خادعتُ فلانًا، إذا كنت تروم خدعه (اللسان). وخدعه: منعه، يقال: كان فلان كريمًا ثم خدع، أي أمسَكَ ومنع. وسوق خادعة: أي مختلفة متلونة تقوم تارة وتكسدُ أخرى (التاج). وخادع الحمد تركه (الأقرب).

إذن فمعنى ﴿يخادعون الله﴾ أنهم:

أولا): يريدون خداع الله ولكن الله لا ينخدع منهم.

ثانيا): يشككون غيرهم بإظهار خلاف ما في صدورهم.

ثالثا): يفسدون في الدين.

رابعا): يحاولون منع الله بمعنى أنهم يعرقلون نشر دينه.

خامسا): يعاملون الله معاملة المتلونين، فأحيانا يطيعونه وأخرى يعصونه.

يشعرون: شعَره وشعَر به: فطِنه؛ عقِله؛ أحسّ به (الأقرب). والشِّعر هو العلم بدقائق الأمور، وقيل هو الإدراك بالحواس. ولا يجوز استخدام ﴿لا يعقلون﴾ مكان ﴿لا يشعرون﴾، لأنه كثيرا ما يكون

الشيءُ معقولا، ولكن لا يشعر به الإنسان. فالفرق بين الشعور والعلم أن الشعور يكون بالحس الباطني أما العلم فيحصل بالوسائل الظاهرة. وقد يؤثر العلم في القلب، أما الشعور فلا بد أن يؤثر فيه (التاج).

التفسير: أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الإيمان النافع يتأسس على النية الحسنة والإخلاص لله عز وجل مع الصدق، والإيمان الذي ينقصه الإخلاص ليس بشيء، بل هو من باب الخداع، والله تعالى عالم الغيب والشهادة فلا يمكن أن ينخدع.

وقد كان لهذه الآية نصيبها من الاعتراضات، فقالوا:

أولاً- كيف يمكن لأحد أن يخدع الله؟ وثانيا- إذا كان المراد من (يخادعون) أنهم يحاولون أن يخدعوه، فالسؤال: كيف يحاول أحد أن يخدع الله تعالى بعد الإيمان به؟ ثالثًا- (ويخادعون) من باب المفاعلة التي تدل على اشتراك الطرفيْن في العمل، وهذا يعني أن المنافقين يخدعون الله والله يخدعهم أيضًا، فكيف يجوز ذلك على الله؟ أليس فيه انتقاص من قدره عز وجل؟

وردًّا على الاعتراض الأول نقول:

أ- إن فعل خادَعَ غيرُ خدَعَ، فخادَعَ يعني حاول خدْع الآخر، سواء خُدع الآخر أم لم يُخدع، وقد سبق تفصيل ذلك عند شرح الكلمات، فلا يصح هذا الاعتراض.

ب- ولا يصح هذا الاعتراض حتى لو فُسّرت (يخادعون الله) بمعنى يخدعونه سبحانه وتعالى، لأن المعنى أنهم يعاملون الله تعالى معاملةً تشبه الخداع، إذ لا يكونون صادقين مخلصين فيها، والتجربة تؤكد ذلك؛ حيث نجد البعض غير مخلصين في إيمانهم. فما دامت التجربة تؤيد ذلك، فكيف يصحّ هذا الاعتراض؟ سواء أكان المنافق مؤمنًا في الظاهر ويكون مع الكفار في السرّ، أو يكون كافرا في الظاهر ويكون مع المسلمين في السرّ، علينا أن نرى لماذا يتصرف هكذا. من الواضح أن غرضَه أن يجني بعض المنافع بخداع الناس، ولكن حيث إن أمْر الإيمان يخصّ الله تعالى في الحقيقة، فلا يعني تصرفه هذا إلا أنه ليس صادقًا مع الله تعالى، وليس مخلصا كما ينبغي في علاقته مع الله تعالى. لا شك أنه ينوي خداع الناس، إلا أننا لو قمنا بتحليل تصرّفه، لظهر لنا أنه لا يريد إلا أن يخدع الله تعالى. وإذا فسد قلب المرء فلا يتعذر صدور مثل هذه التصرفات المتناقضة عنه. ولكن لا يعني ذلك أن الله تعالى ينخدع بهذه المعاملة؛ فهو سبحانه العليم الخبير الذي يستحيل خدعه وانخداعه كما يقول ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾. فمخادعة الله هنا ليست بحقيقة وإنما هي مجاز، ومعناها مماطلة أحكام الله، والتنصّل عن الواجبات المفروضة منه، ومثله قول الشاعر: "وخادعتُ المنيةَ عنك سرًّا". وقد أراد به إزالة أسباب الموت.

فإذا كان معنى الخداع هو قصد الخدع وإرادته، فما وجه الاعتراض على ذلك؟ إن في هذه الدنيا طائفة من العلماء والفلاسفة الذين لا يعتقدون بعلم الله عز وجل، ويظن بعضهم أن علمه سبحانه وتعالى

يقتصر على الكليات ولا يحيط بالجزئيات، وأمثال هؤلاء كانوا موجودين وقت نزول القرآن أيضًا كما ذكرهم في قوله: ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (فصلت:٢٣ و٢٤).

ووصفهم في قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (هود: ٦).

ولا يعتقد هذه العقيدة إلا ضعفاء الإيمان ممن يجهلون صفات الله تعالى، ولا يدكون كنهها حق الإدراك، فيتخبطون في هذه العقائد والأعمال المنكرة، متشبثين بقشة الغريق.. يقولون: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٤).

يظنون أن الله تعالى يغفر لهم لأنه رحيم غفار، بل إنهم هم مظاهر مغفرة الله، ولولاهم ما ظهرت مغفرته. ولكن الآية الكريمة تقرر أنهم يخدعون أنفسهم بإيمانهم الفاسد وعقيدتهم الباطلة.

أما من يقولون بأن المخادعة تعني المشاركة فيكون الخداع من الله تعالى أيضًا، وهذا ينال من عظمة الله وعلو شأنه، فنرد على اعتراضهم بأن المفاعلة لا تستلزم المشاركة من الجانبين، بل قد تدل على صدور الفعل من جهة واحدة كقولك: عاقبتُ اللصَّ. فهذا لا يعني أنك عاقبته وهو عاقبك. كذلك يعني قوله: ﴿يخادعون الله﴾ أن محاولة الخدع حدثت من جانب المنافقين وحدهم.

هذا، وإن جزاء الجريمة يعبر عنه أحيانا بلفظ الجريمة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (الشورى:٤١)، وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة:١٩٥).

فالمعنى أن المنافقين يخادعون الله، والله يخدعهم.. أي يعاقبهم ويجازيهم على خداعهم. وهذا الاستعمال شائع في اللغة العربية وهو من باب المشاكلة، يقولون: "حَسَدَني الله إن كنتُ أحسُدُك"، أي عاقبني على الحسد (الأقرب).

وقال عمر بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحـــدٌ علينا فنجهَل فوق جهلِ الجاهلينـــا

ومثله قول الطحوي:

فنكَّب عنهُمُ درءَ الأعادي وداوَى بالجنـــون من الجنونِ

وهذا المعنى يدعمه قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٣).

خلاصة القول: إن الآية لا تعني أبدا أن الله تعالى يمكن خداعه. فهذا الفهم الخاطئ يخالف نصوص القرآن الصريحة، وهو افتراء جريء على العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية.. كما قال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٧).

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الأنفال: ٤٤).

﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(سبأ: ٤).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: ٨).

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر:٢٠).

نخلص من هذا البحث بالأمور التالية عن المنافقين وسلوكهم:

١. أنهم بسلوكهم يتعاملون مع الله تعالى معاملة الخادع.

٢. أنهم يريدون خداع الله تعالى مع أنه يجلّ عن الانخداع.

٣. أن الله تعالى يعاقبهم على أعمالهم بما يوقعهم في مغبة خداعهم.

٤. أنهم يتناءون عن الله بسلوكهم.."حيث خدع تعني هجر".

٥. أنهم لا يستقرون على حال بسبب عدم إخلاصهم فيما يدَّعونه من إيمان. فهم أحيانا يتصرفون تصرف المؤمنين ويسايرونهم خوفا منهم، وأحيانا يخضعون لوطأة الكفار وينحازون إلى صفوف أعداء الإسلام.."حيث خدع بمعنى اضطرب ولم يستقر على حال كقولهم: سوق خادعة".

٦. أنهم يسلكون مسلك المفسدين.. "حيث الخداع يعني الفساد".

٧. أنهم يخادعون رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ومن يسعى لخداع الرسول ﷺ فكأنما يريد بذلك خداع الله تعالى. ويتبين هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١١)، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٤). فمبايعة الرسول ﷺ مبايعة لله، وتكذيب الرسول ﷺ جحود بآيات الله.

ولقد ورد نفس الأسلوب في الحديث القدسي: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلانا مرض، فلم تَعُده؟ أما علمت أنك لو عدتَه لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم، استطعمتُك ولم تُطعمني. قال: يا ربّ كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان، فلم تُطعِمه. أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسْقيتُك فلم

تسقني. قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تُسقه. أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي" (مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض).

وقوله تعالى: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ يدل على حقيقة ناصعة، وهي أن أعمال المنافقين التي يعوزها الإخلاص ستعود عليهم وبالا، لأن الخديعة لا تحلّ إلا بصاحبها.. فيكون في الدنيا والآخرة من الأذلاء السافلين. يظن أنه يخدع الله تعالى، ولكنه في الواقع يخدع نفسه ويدفعها نحو الهلاك.

وقوله تعالى: ﴿وما يشعرون﴾ أي لا يفطنون إلى حقيقة الأمر. والشعور يختلف عن العلم والعرفان والعقل والفكر. فالشعور هو العلم بالأمور الدقيقة، والعلم هو ما يحصل عن طريق الحواس الظاهرة. أما العرفان فهو العلم المتكرر للشيء، ولذلك تسمى العلوم الروحانية بالعرفان، لأنها تدرك أولا بكلام الله تعالى أو بالفطرة الصحيحة التي فطر الله الناس عليها، وهذا هو العلم الابتدائي عندما تقترن به المشاهدة يصير عرفانا، ويسمى صاحبه عارفا، لأنه شاهد صفات الله التي علمها من كتاب الله وعرفها حق المعرفة. والعقل هو قوة توجه الإنسان نحو العمل طبق علمه وفكره وشعوره، والعاقل هو الذي يستعمل في أعماله العلم الصحيح والفكر الصائب والشعور النافذ إلى دقائق الأمور، ويمنع نفسه من مخالفة هذه القوى. أما الفكر فهو قوة تساعد على الاستنتاج من المعلومات الخارجية، والمفكر هو الذي يرتب معلوماته البسيطة ترتيبا يؤدي به إلى نتائج جديدة لم يكن يعرفها أحد من قبل.

الشعور هو إحساس المرء بقواه الباطنية التي جُبل عليها، وبالتالي اهتداؤه بها إلى طريق الخير. ومنه سمي الشعر لأنه يظهر من الداخل إلى الخارج. والشعار هو اللباس الداخلي الملتصق بجسم الإنسان. والشعار الشجرة لأنها تنبت خارجة من الأرض. والشعار أيضًا هو كلمة السر التي يُتفق عليها بين الحارس وغيره من الخفر، وسمي كذلك لأنه من الأسرار الخفية، والشّعر سُمي كذلك لأنه يعبر عن المشاعر والعواطف الباطنية. والشعائر هي مظاهر إرادة الله عز وجل، وبها تتجلى مشيئته وصفاته. والمشاعر هي الحواس الباطنية، فالشعور إذن حسّ خفي يطلع الإنسان على قواه الباطنية، ولا علاقة له بالعلم الخارجي.

وقوله تعالى: ﴿وما يشعرون﴾ يعني أن الفطرة السليمة تمج الخداع، ولكن المنافقين لا يعرفون حتى قوى نفوسهم فضلا عن حقائق الدين. وهم لا يدرون أن النفاق من الأفعال القبيحة التي ترفضها الفطرة السليمة دون أن يوجهها أحد.

وكما سبق أن ذكرنا أن هذه الآية تشير إلى جماعة من أهل المدينة كانوا يتظاهرون بالإسلام قولا بأفواههم ولم يكونوا مسلمين في الحقيقة. فلما أسلم غالبية أهل المدينة دخل هؤلاء مع الداخلين في الإسلام.. دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التفكير الجاد. ولكنهم لما أمعنوا النظر في حقيقة الإسلام وجدوا أن هناك تضحيات لا بد من تقديمها لأجل الإسلام.. تراجعوا وابتعدوا عنه شيئا فشيئا. ولكنهم لم

يجرءوا على إنكار الإسلام جهارا خشية قومهم. والقرآن الكريم يذكر ذلك فيقول لهم: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ*الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (التوبة: ٦٦و٦٧).

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

مرض: كل ما خرج بالإنسان عن حد الصحة من علة ونفاق وشك وظلمة ونقصان وتقصير في أمر (الأقرب). هو الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، وذلك ضربان: الأول مرض جسماني وهو المذكور في قوله: ﴿ولا على المريض حرج﴾، والثاني عبارة عن الرذائل كالجهل والجبن والبخل والنفاق وغيرها من الرذائل الخلقية. ويشبّه النفاق والكفر وغيرها من الرذائل بالمرض.. إما لكونها مانعةً عن إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن عن التصرف الكامل، وإما لكونها مانعة عن تحصيل الحياة الأخروية، وإما لميل النفس إلى الاعتقادات الرديئة ميل البدن المريض إلى الأشياء المضرة. ولكون هذه الأشياء متصورة بصورة المرض قيل: دُووِيَ صدر فلان ونغل قلبه (المفردات).

أليم: موجع (الأقرب). عذاب أليم: أي مؤلم (المفردات).

يكذبون: كذب أي أخبر عن الشيء بخلاف ما هو مع العلم به، ضد صدق، وسواء فيه العمد والخطأ (الأقرب).

التفسير: يراد بالمرض في هذه الآية النفاق. وقد ذكرت السورة أولا أصحاء الروح وهم المتقون، ثم ذكرت المصابين بمرض الكفر، ويليهم المنافقون الذين في قلوبهم مرض. ولقد وصف النبي ﷺ علامات هذا المرض في المنافق فقال: "إذا حدَّث كَذَبَ، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ" (البخاري، كتاب المظالم وكتاب الشهادات).

هذه العلامات لوازم النفاق، لأن المنافق يريد أن يخفي نفاقه ويدفع عن نفسه هذه التهمة، فيلجأ إلى الكذب والشجار والسباب لكي يشغل الناس عن عيبه. ولا يستطيع المنافق أن يرضي الجانبين دائما،

فيلجأ إلى إخلاف الوعد ونقض العهد. ولا يكون المنافق مقبولا عند من ينافقهم إلا إذا خان قومه وأفشى أسرارهم. وهكذا نجد تلك الصفات الذميمة مرتبطة بمرض النفاق ارتباطا وثيقا.

وفي قوله: ﴿فزادهم الله مرضا.. ﴾ نُسِبَت زيادة المرض إلى الله، لأنها نتيجة لمخالفة أحكام الله وقوانينه.. يترتب عليها نتائج حسنة أو سيئة.. قدّرها الله تعالى، لأنه واضع القوانين ومسبب النتائج. وإلا.. فما أنـــزل الله القرآن للناس ليزيدهم مرضًا، بل أنزله شفاء لهم من الأمراض حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس: ٥٨).

والمرض المذكور في الآية هو فقدانُ قوة الحسم والجبنُ والنفاقُ كما يقول: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة:٧٧).

ولزيادة المرض عند المنافقين معنى ثانٍ، ذلك أنه كلما زاد المسلمون تقدمًا وقوة، اضطر المنافقون إلى زيادة نفاقهم استرضاء للمسلمين، مع أنهم أشد استياء وغيظًا، وهكذا يزداد مرضهم. وقد عبّر القرآن عن هذا المعنى بقوله: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ (عمران:١٢١).

وكلما نزل القرآن الكريم بأحكامه وأوامره، وتوطدت الشريعة الإسلامية، ازداد مرض المنافقين واشتد نفاقهم واضطرابهم وَوَجَلُهم وجبنهم. وقد بين الله تعالى ذلك في قوله: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ (محمد:٢١).

تقرر هذه الآية ثمرة النفاق بقوله: ﴿ولهم عذاب أليم﴾، ولكن ثمرة الكفر في الآية السابقة هي ﴿ولهم عذاب عظيم﴾. والسبب الفارق بين العذابين أن الكفار مهما تعرضوا للعذاب إلا أنهم يناوئون الإسلام، ويحاولون بذل جهدهم للقضاء عليه، وهكذا يُخفون عن صدورهم. أما المنافقون فإنهم يكتمون عداوتهم، ولا يستطيعون التنفيس عن غيظهم والإفصاح عن سريرتهم، فيتجرعون المرارة ويحترقون من الألم، ولذلك وصف عذابهم بأنه عذاب أليم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

لا تفسدوا: فسد ضد صلح. الفساد ضد الصلاح، وهو خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج منه أو كثيرًا (المفردات).

الأرض: النَفضة والرِعدةُ (التاج)؛ الكوكب الذي نعيش عليه؛ قطعة منه؛ وتعني البلاد، يقال: أرض الشام وأرض مصر. والأرض في هذه الآية تعني البلاد؛ وكل ما سفل فهو أرض (الأقرب).

مصلحون: صلح ضد فسد. أصلحه: أقامه بعد فساده. وأصلح بين القوم. وفَّقَ (الأقرب).

التفسير: ظهر فساد المنافقين في تصرفاتهم التالية:

١- إثارة الشقاق بين المهاجرين والأنصار.. متخذين الحمية القومية ذريعة لتحقيق أغراضهم الهدامة. مثال ذلك ما فعله عبد الله بن أبيّ بن سلول يوم غزوة بني المصطلق، إذ أثار ضجة، وزعم أن الأغراب (يريد المهاجرين) يتسلطون على الأنصار بسبب تهاون هؤلاء في حقوقهم. فحرَّضهم عن التخلي عنهم وعدم مساعدتهم بالنفقة، وتطاول في كلامه على مقام الرسول ﷺ، وقد حكى القرآن هذه الواقعة كشفا لحقيقة المنافقين وأهدافهم فقال: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ (المنافقون:٨).

٢- الطعن في سيرة الرسول ﷺ تحريضا للخوَنة، وسعيا لزعزعة إيمان الناس في أعماله. ومثال ذلك تعريض بعضهم بعدالة النبي ﷺ في توزيع الصدقات. وقد أشار القرآن إلى هذا في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ (التوبة:٥٨). وتعريض بعضهم بأن الرسول ﷺ سمّاع لكل ما يقال، كما ذكر القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾(التوبة:٦١).

٣- الشماتة في المسلمين إذا أصابهم أمر، ومحاولة إضعاف روحهم المعنوية. وقد عبَّر القرآن عن ذلك في قوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ (التوبة:٥٠).

٤)- إطلاق الشائعات وترديدها سعيا إلى تثبيط عزيمة المسلمين، وقد ذكر القرآن ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ (النساء:٨٤).

٥- تحريض غير المسلمين على محاربة المسلمين. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الحشر:١٢).

وتشير الآية إلى ما يسوقه المنافقون تبريرا لمسلكهم المتلوّن بأنهم يريدون الإصلاح والخير. وهذا دفاع باطل لستر نواياهم الخبيثة، ولكن الأحداث تكشف ما يُبطنون من بُغض للإسلام والمسلمين.

ووجود المنافقين ظاهرة تلازم الجماعات التي يحكمها نظام دقيق محكم. أما المجتمعات التي تفتقر إلى النظام فإن النفاق لا يتأصل فيها. فالنظام المحكم يخشاه الجبناء ولا يجرؤون على مناهضته جهرا، ولذلك يوالون الأعداء سرًّا، ويدسون على النظام دسائسهم في الخفاء.

والجماعة الإسلامية الأحمدية هيئة منظمة، فلذلك عليهم أن يتوقعوا وجود المنافقين الذين يندسون بين صفوفهم بتحريض من أعدائهم. وإنَّ تواجد المنافقين فيها لدليل على نظامها المحكم وليس علامة ضعف فيها. ولقد عرفنا القرآن الكريم علامات المنافقين وكشف الستار عن أعمالهم، فَلْنَحْذَرْهم جيدا ولا نغفل عنهم، ونعاملهم بالمعاملة التي رسمها القرآن الكريم، فلا نغتر بدعاواهم الخلابة، لأنهم يتلصصون كالشيطان، ويدعون بأنهم من الناصحين.

أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٣﴾

التفسير: إن عدم شعور المنافقين بفسادهم دليل على ضعف شعورهم، لأن النفاق مصدره القلب، ولا يفطن إليه إلا بالشعور. ولو أن المنافقين تفقدوا ما في قلوبهم لأدركوا أن أعمالهم لا تهدف أبدا إلى الإصلاح المزعوم، بل إنها راجعة إلى الجبن وعداء الجماعة، ولو فعلوا ذلك لأدركوا حقيقة مرضهم، ولكنهم لا يحاولون النظر فيما تختلج به صدورهم من الأفكار. فهم بذلك يخدعون أنفسهم فضلا عن خداعهم مَن سواهم مِن الناس.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

السفهاء: سَفِه الرجل: اتصف بالسفاهة؛ جهل. سفهت الطعنة: أسرع منها الدم وخف. وسَفِه نصيبه: نَسيَه. السَفَهُ: خفة الحِلْم أو نقيضه؛ أو الجهل، وأصله الخفة والحركة والاضطراب (الأقرب). السفه: الخفّة في البدن، ومنه قيل: زِمامٌ سفيه: كثير الاضطراب؛ وثوب سفيه: رديءُ النسج. واستُعمل في خفّة النفس ونقصان العقل وفي الأمور الدنيوية والأخروية (المفردات). وسافهتُ الشراب: إذا أسرفت فيه (اللسان). فالسفيه هو خفيف العقل؛ الجاهل؛ المتقلب الرأي؛ قليل الذكاء في الدين والدنيا، مَن لا وزن لرأيه؛ عديم التفكير عند الإنفاق.

يعلمون: علم: تيقن وعرف؛ أتقن؛ أحاط. والعِلم: إدراك الشيء على حقيقته (الأقرب).

التفسير: ينظر المنافقون إلى المؤمنين على أنهم يتصفون بالسفاهة، ذلك لأنهم ينفقون أموالهم بسخاء في سبيل الله، ويضحون بحياتهم من أجل دعوة الإسلام، ويتعرضون لمخاطر القتال وعداوة الكفار، وهم على قلة عددهم يتحدَّون الدنيا كلها. ولذلك إذ دُعي المنافقون إلى إخلاص النية وصدق الإيمان قالوا: لا يمكن أن نكون حمقى مثل هؤلاء المؤمنين، وإنما علينا أن نحفظ أرواحنا وأموالنا وجهودنا. وقد أشار القرآن إلى هذه الأمور في مواضع عديدة مثل:

﴿لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ (المنافقون:٨)،

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ (الأنفال:٥٠)،

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ (التوبة:٧٩)،

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (المائدة:٥٣).

والحق أن الفتح والانتصار لا يستحقهما إلا الشجعان البواسل والفدائيون المناضلون. والمؤمنون هم أشجع من في الأرض، لأن أنظارهم تشخص إلى السماء دون الأرض. إن الشعوب التي تتهرب من التضحيات وتتقاعس عن الفداء.. مصيرها الهلاك والدمار، والذين يضنون بأموالهم عن الإنفاق في سبيل الله هم الذين يبددونها باطلا، أما الذين ينفقونها في مواضعها.. فأولئك هم الذين يُنمّونها ويضاعفونها أضعافا كثيرا.

وترد الآية على المنافقين بأن جبنهم وبخلهم هما السفاهة بعينها، إذ يراهنون على الحصان الخاسر. فالكفار لن ينتصروا بتاتا، وإذن فلن يجديهم نفاقهم شيئا، بل إنهم سيخسرون أموالهم وحياتهم في عين الذل والحسرة. ومن كانت هذه حياته ونهايته فقد سفه سفها مبينا. وقد عاش رئيس المنافقين حتى رأى بعينه انتصار الإسلام، وتبين له مَن الحكيم ومَن السفيه. يقول تعالى مُبيّنًا هذه الحقيقة: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة:٨٥).

نعم، إن الحرص الشديد على المال والولد يجعل حياة المنافق عذابا وقلقا وحرمانا، ثم يعقب ذلك الهلاك والخسران.